الدَّرَكُ الأَسْفَلُ مِنَ الجَنَّةِ

رسلي المالكي

الطبعة الاولى
2018

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠١٨م - ١٤٤٠ هـ

ردمك ٦- ٢٦١٧- ٠١- ٦١٤- ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي حجازي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت هاتف+(٩٦١١) ٧٨٥١٠٧)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت هاتف+(٩٦١١) ٧٨٦٢٣٣)

يشكر الكاتب رسلي المـالكي كل من ساعد وساهم في جـعل روايته (الدرك الاسفل من الجنة) تظهر بالشكل والمضمون الذي هي عليه الان، ويقف ممتنا لاصغر محاولة مساعدة قدمت له اثناء مسيرته لانجاز هذا العمل ..

شكر وتقدير الى :

جواد كاظم محمد × الدكتور طه جزاع × ندى المندلاوي × د.نازك بدير× احمد العتبي× د.هوشيار مظفر علي امين× زينب نجم× علي حجازي× د.عمر شهاب العزي× مصطفى بهجت × احمد الحسيني

والداي..

والى ..
سارة

"كل ما تستطيع تخيله هو حقيقي.."

بابلو بيكاسو

العالم الذي تتحدث عنه هذه الرواية
خيالي وخارج الزمان والمكان...

الاهداء..

الى عقولنا جميعا ..
مع احترامها بما تستحقه..

رسلي المالكي

"الراقدون في تراب الارض يستيقظون، هؤلاء الى الحياة الأبدية، وهؤلاء الى العار.. للأزدراء الأبدي"..

سفر دانيال : الاصحاح 12

الدَّرَكُ الأَسْفَلُ مِنَ الجَنَّةِ

الفصل 1

كانت تلك هي الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة الحادي والعشرون من ديسمبر من العام 305 لبدء الحياة على جزيرة هفينا. عندما صرّت اعمدة كوخه المتشبث بالأرض بأنينٍ مبحوح بعد عاصفة ليلية عنيفة. وهدأ الجو بداخل الكوخ مع اول خيط نور القت به الشمس على الجزيرة. في اعقاب عبث الريح الغاضبة بها طيلة تلك الليلة. ورغم انه نسي ما حدث من عاصفة بعد غفوةٍ طويلة تحت اغطيته السميكة معطيا قفاه للريح النافذة الى الكوخ. الا انه حينما صحا على اصوات الدجاج في الباحة الخارجية. تذكر ما جرى من عاصفة خلال الليل. فقد كانت الاعنف منذ ان عرف الوعي في هذه الدنيا التي اوجدته هنا. حين ولد قبل ثلاثة وثلاثين عاما في ذات الكوخ العتيق. حيث يعيش اليوم منفردا.

تعالت اصوات الدجاجات وهي- كما بدا له- تحتفل بانتهاء العاصفة هي الاخرى. كان يفهم ذلك من أصواتها. الا ان اصواتا نسائية بشرية كانت تتعالى معلنة العكس. كأنها حفلة اختبار لأصوات النحيب والحشرجة. بدا من الصوت كإن كارثة كبيرة قد حلت بالجزيرة. لقد تطاولت اصواتهن النادبة الباكية لمسامعه كأن عاصفة الامس لم تلقِ بمطر كثيف ورياحٍ عالية. عاتية هوجاء فحسب. بل بحجارة شجت رؤوس أبنائهن..

ركل الاغطية عن جسمه ناهضا بتثاقل. فيما كانت بعض الأصوات تصرخُ في رأسه كأزيز خيوط هواء الليلة الماضية داخل فضاء كوخه. خطا قليلا قبل ان يتعثر بآنية من الفخار كانت تركها بمكانها بعد عشاء الامس. تجاوزها مقتربا من النافذة ذات الستار السميك ليلقي نظرة على ما يجري في الخارج. لكن الستار كان ملطخا ببقايا الغبار الذي خلفته مياه المطر التي جفت عليه وجعلت الرؤية صعبة من خلاله. غير اتجاهه

وانتعل خفه ليخرج نحو مصدر الاصوات، امسك بمقبض الباب الخشبي وسحبه نحوه، وتساقطت على راسه بعض قطرات المطر المختبئة فوق أطار الباب، وحين تجاوزه نحو الخارج، لفحته نسمة باردة من الهواء الطلق، ومع خطواته، ازداد الصوت حدة، بلى، تبدو كارثة ما قد وقعت، النساء يبكين بحرقة، والدجاج يتحرك بصخب، ويبدو ان صوت فرسٍ بدأ يزيد على الضجيج صهيلا، مشى راموس في باحة الكوخ بخفه الذي غاص نصفه في الوحل حتى وصل لكعب قدمه، وحاول الالتفاف داخل باحة المنزل المحاط بسياج من القصب الواقف بكثافة، ليصل الى مكان تجمع الدجاجات التي تبدو في هياج، تحرك فوق قطع من الحجر الملقاة في بحر من الوحل، وبان له تجمع دجاجاته الخمسة عشرة وهي ترفرف بأجنحته، وتحوم حول امر ما كأنه كان قد القي وسط تلك الدوامة من الاعراف الحمراء والاجنحة المرفرفة.

تجاهل راموس صوت النسوة في الخارج واقترب من تجمع دجاجاته تلك، وعندما اقترب، رأى انها لم تستقبله بحفاوة مثل كل يوم حينما يصبّح عليها بإناء من الحنطة، اذ كانت تعدو سواءا جاء بالإناء ام لم يجيء، هي اليوم منشغلة بأمر اخر لفت اهتمامها، اكثر من طعامها الذي يأتيها يوميا به بيده، بل حتى انها لا تخشاه وتبتعد حين بدا يهشّ بها عما تجمعت حوله، واقترب اكثر ليزيحها بيديه ناظرا الى مركز تلك الفوضى، وحين ابتعدت الدجاجات عن مركز الدوامة، وجد راموس ان ديكين من اصل ثلاث كانا قد ماتا وسط باحة الكوخ، وان تجمع الدجاجات كان نحيبا على رحيل الديكين ، فقد كان الديكان ميتين دون اثر إصابتهما بأداةٍ صلبة او حادة، تلفت راموس حوله ليعثر على ديكه الثالث، ووجده يحوم مع باقي الدجاجات ينعى معهن رحيل رفيقيه.

نهض تاركا ازمة الديكة تلك والفضول يتزايد بنفسه لمعرفة سبب

عويل النسوة البشريات هذه المرة. مشى بالصعوبة ذاتها في باحة الكوخ متجها نحو باب السياج ليطلع على ما يجري خارجه. نزل الطين من تحته مخلوطا بالمياه المتجمعة. الا انه واصل الخطى الى الخارج ونظر من بين نهايتي السياج الى ما يجري هناك. لقد كانت النسوة يرتدين السواد من الثياب، ويندبن كما لو انهن لم يبكين منذ زمن. حتى ان احداهن خدشت جدارا بأظافرها لتكسرها جميعا عليه. وكانت اول من لفتت انتباهه من بينهن باربوسا الفاتنة التي كانت عيناها متورمتين من شدة البكاء، ولم يرها كذلك ابدا من قبل. ولا سيما خلال الشهر الاخير. حين كانت السعادة تغمر عينيها خلال ذلك الشهر الذي كان شهر عسلها. اذ تزوجت من احد رجال الشرطة الذين احبتهم. ولم يرها راموس بغير فساتينها المخملية التي تطغى الوان خديها على لونها. حين كانت تسير مع زوجها وهو يتمايل بأبهته وملابسه التي تدل على منصبه. كانت باربوسا اكثر الباكيات هدوءا وهي بوسط تلك الجلبة من نساء هَفِينا اللاتي كنَّ كموجة من الحزن و العويل تجوب الجزيرة.

انحنى راموس على دلو مياهٍ كان بجانب السياج من الخارج. وغرف بعضا من مائه ليغسل وجهه ويفهم ما حدث. لم تلاحظه النسوة حين خرج من سور كوخه وبدا يغتسل. وحين نشف وجهه بكم قميصه المتهرئ لينهض مقتربا منهن. واقترب من موجة العويل تلك التي شكلت كتلة من الحزن والسواد. وبعد خطوات قليلة اخرى. صرخت احداهن: راموس!

لم يكن هو بالشخصية الهامة في هَفِينا لتصيح احداهن باسمه بهذا الشكل. ولتهدأ عاصفة النحيب بسببه وتتحول جميع الانظار اليه. لقد كانت اعين النساء تلمع بالدمع حين نظرن اليه نظرة قدَرٍ واحد. راموس! واقتربت الجوقة منه سريعا. كانت اقدامهن الحافية تدوس الوحل والعشب مسرعة باتجاهه. فيما لم يفهم هو ما يحدث . سوى انهن بدأن

حين وصلن اليه بتفحصه والنظر اليه وقد طوقنه من كل جانب. لم تزل الصدمة والاستفهامات الكثيرة تحوم في جمجمته وهو ينظر اليهن هكذا يتلمسن صدره ووجهه بأيادٍ بللتها الدموع: انت حي؟". قالت له احداهن. فيما اعتبر هو السؤال غبياً. اذ كان واقفا امامهن بجسمه الذي يبدو ان الروح لازالت تسري فيه!

ماذا جرى؟. قال راموس. لكن أيا منهن لم تكن لتسمعه. فقد كانت اعداد النسوة تتزايد من حوله و الفوضى تطل برأسها اكثر. نسي امر اقدامه التي تلطخت بالطين وهو محاط بأكثر من اربعين امرأة تنشج وتبكي وتعول وتصرخ وتنظر اليه. تذكر حياته على هَفِينا سريعا. بائع مياه منذ عشر سنين. ينقل الماء من عين في تل على ظهر الجزيرة الى سكانها ليجني من ذلك قوت يومه. مجرد بائع ماء لم تلتفت اليه اي من تلك النسوة التي مرت امام عينيه وجوههن سريعا وهن يطفن حوله. وجوه مراهقات وبالغات وثلاثينيات واربعينيات. بل حتى وجوه عجائز سبعينيات. تداخلت الوجوه بين جميلة واكثر جمالا. وجوه متوردة وصفراء. سمراء وصهباء. ولم ينفتح ذهنه للتفكير حتى داست احدى النسوة بخفها على اصابع رجله مرغة اياها في الوحل اكثر. ويبدو ان تلك كانت قدم باربوسا الحسناء. عروسة هَفِينا الاخيرة. والتي هي اليوم تبدو اكثر جمالا بعينين متورمتين لشدة البكاء.

ماذا حدث؟..

سأل راموس بصوت اعلى هذه المرة. الا انه حين نطق بها في الوقت ذاته. صهلت الفرس من جديد. فضاع صوته مجددا. لكن احداهن كانت قد قرأت شفاهه وفهمت ما يسال عنه. فأمسكت بوجهه بين كفيها وقالت له: راموس. لقد فني كل رجال الجزيرة.. الا انت!

الفصل 2

تقاطرت الجنائز على مقبرة هَفِينا بعد ان انجزت نسوة المدينة تهيئة مراسم الدفن. لقد كانت كل اربع نسوة تحمل جثة احد رجال الجزيرة الذين قضوا اثناء عاصفة الليلة الماضية وهم في منازلهم بشكل غامض. وما ان يضعنها في حفرة القبر حتى تبدأ اربع نسوة اخريات بإهالة التراب والطين عليها. ثم تقوم اربع نسوة اخريات بحمل جثة اخرى وتقديمها للدفن وهكذا. اما راموس. فقد كان واجبه تهيئة جثثهم قبل ان يتم حملها للمدافن. فيقوم بخلع ملابس المتوفين واستبدالها بقطع من القماش المصنوع من القطن. ليلف بها تلك الجثث من الرقبة الى القدمين. فيما يترك الراس باديا وفق تقاليد الدفن في الجزيرة. وعندما يقوم بعملية التحضير. تكون زوجة او ام او ابنة المتوفي بجانب راموس. غالبا ما تنثر دمعها ونحيبها وسط جو ملئ بالحزن والفقدان. حتى يحين حمله الى مآله الاخير.

مر ذلك النهار بألم ونشيج وفقدان وعي بين النسوة. يوم حافل بدفن الاحباب الذكور. وعندما شارفت الشمس على الغياب. كانت اخر جثة قد أدخلت الثرى في كل ارجاء المقبرة العتيقة. وكانت تلك جثة عريس باربوسا الحسناء. فتقاليد هَفِينا تقضي بان يدفن موتى العرسان الجدد بعد مرور نهار كامل على وفاتهم. لقد كانت باربوسا في حال كأن حزن هفينا بأجمعه تلفع حولها. فنحبت طويلا وهي تنظر الى جثة زوجها الشاب وهي تُغمر بالتراب والطين الرطب في عمق ارض الجزيرة. وليتم نصب شاخص قبره عند راسه مزدانا بإكليل من الورد. وفق طريقة الهفنيين في الدفن. وهي مما اكتسبوه عن طريق البحارة الوافدين الى ميناء الجزيرة. حيث تمتد هفينا كبقعةٍ من البر وسط بحر لامتناهِ الافاق. كقبلةٍ للسفن

المارة اليها او استراحة للعابرة الى اراض اخرى، شواخص من بضعة احجار على تلك القبور، تاركة المدفون تحت رحمة ما يسمونهن: آلهة المعادن السبعة، التي يؤمن بها الهفنيون، والتي تحمي وفق اعتقادهم ارض الجزيرة حافظة اياها من الغرق والجفاف، ومن بوار الارض او الحرائق والبراكين والهزات المفاجئة.

تلاشى اللون البرتقالي للشمس في الافق معلنا انتهاء يوم حافل بالدمع والبكاء على ارض الجزيرة، ولاذ راموس بقش كوخه العتيق في نهاية ذلك اليوم وهو يجرجر قدميه الموحلتين بصعوبة محاولا بلوغ فراشه، وقبل ان يلج من باب الكوخ، القى ببصره الى دجاجاته اللاتي بلغن زاويتهن التي اعتدن عليها، تاركات جثث الديكة النافقة على حالها في باحة الكوخ، وبفعل الحزن الذي بداخله، كان يرى الحزن في اعين تلك الدجاجات، واصل تقدمه نحو غرفته وسقط على فراشه الخشن كعمود متهاوٍ، لم يدرك حتى الان -كما لم تدرك هَفِينا بأكملها- السبب الذي قضى على كل رجال الجزيرة عداه هو، وتذكر ما قالته له احدى النسوة حول صهيل الفرس التي اشعلت الجو بصخبها هذه الصباح بينما كانت تحدثه في المقبرة، اذ قالت له ان ذكرها قد مات هو الاخر في العاصفة ذاتها، وبدا له، ان ذكور الكائنات على الجزيرة كلها قد ماتت، لكنه عاود التذكر بان ديكا واحدا لازال حيا في باحة منزله، وهذا ما اثار شكوكه واسئلته اكثر، ربما هناك ذكور اخرى لازالت على قيد الحياة.

قريبا من وسن خفيف، وبينما بدأ جفناه يلتقيان في غشاوة النوم الاولى، سمع راموس صوت صهيل واضح قريبا من فناء منزله، فتح عينيه وشعر بانه يعرف ذلك الصوت جيدا، فذلك الصوت هو صوت حصان لا صوت فرس، واستمع الى جلبةٍ تحيط بذلك الصوت، جلبة بشرية طغى عليها الصوت الانثوي، وبسرعة، فقد الاحساس بالنعاس وخرج سريعا وقد اصابه

الهواء البارد خارجا. مشى الى خارج سياج منزله. وكانت هنالك نحو سبعة نساء متلفعات بالسواد يحطن بحصان بني اللون وبلبدة سوداء طويلة. اقترب راموس منهن. وسأل عما جرى لذلك الحصان ليحتفين به هكذا. قالت له احداهن انه الناجي الوحيد من كل احصنة الجزيرة التي قضت في عاصفة الامس. وان وجوده حيا يعني ان نسل الخيول في الجزيرة لن ينقطع. ولما رأى راموس ان هذه الاخبار تبدو مفرحة لنسوةٍ انتحبن طويلا لكارثة الامس. اراد اضفاء بعض من البهجة على حالهن. فافصح عن وجود ديك له لايزال حيا من بين ديكته الثلاثة. وبالفعل. تبادلت النسوة النظرات فيما بينهن. بينما انضمت لهن نسوة اخر. قالت احداهن: انها ظنت ان هَفِينا لن ترى مزيدا من البيض بعد. بعد ان رأت عدد الديكة الميتة التي سيتم شيها واكلها والاحتفاظ ببعض لحمها مجففا عوضا عن رميها وتركها للتفسخ. وبينما احداهن تمسد ظهر الحصان. شرعت احداهن بالاعتراف بانها لازالت تحتفظ بثور حي واحد في مزرعتها الصغيرة على اطراف الجزيرة. فيما نفقت باقي الثيران تاركة الابقار من دون ذكور ثيران.

مرت ساعة تقاطرت فيه النسوة على المكان الذي دارت فيه هذه الاحاديث. وفهمت نسوة جزيرة هَفِينا ومعهن راموس الانباء السارة المتعلقة بالذكور وبعاصفة الامس. ان كل صنف من الحيوانات قد نجى منه ذكر واحد فقط. وفهم راموس كما اكدت له النسوة. انه كان فعلا الرجل الوحيد الناجي من صيحة موت الذكور التي حلت بالجزيرة في وسط عاصفة الليلة الماضية المميتة.

لم يدرك احد سببا مقنعا لظاهرة وفاة الذكور تلك. فبعض النسوة المطلعات عللن ذلك بانها نتيجة وباء حملته العاصفة والقته مع المطر فأصاب الرجال وذكور الحيوانات وقضى عليهم سريعا. ولعل راموس يمتلك بعضا من المناعة المتفوقة على اقرانه اذ نجى منها. فيما تعالى صوت

امــرأة اخرى وهي تقول ان سبب ما حــدث كان عقابا لهَفِينا لان سكانها قصروا في عبادة الهة المعــادن، فيما قالت الثالثة، ان عليهم ترك التفكير بكل الاسباب لما حدث جانبا، والتفكير فقط بكيفية الحفاظ على راموس، وعلى ذكور الحيوانات المتبقية، الوحيدة التي كانت محافظة على هدوئها ولمعــان عيونها ببواقــي الدمع، هي باربوســا الفاتنة التــي كانت تكتف ذراعيهــا وتنظر الى ذلك الحــوار بثوب اسود ملطخ ببعض الوحل، وشال أسود تنسدل من تحته خصل من شعرها الاصفر المذهب.

انسل راموس من بين النسوة اللاتي عبقت ملابسهن برائحة الطين والتراب والدمــوع والرعب محاولا العودة الى كوخه بعد ذلــك اليوم الشاق، وليشرع بمحاولــة النوم من جديد بعــد المحاولة الفاشلــة الاولى، لكنه وبينما كان يتمشــى منسحبا من تلك الاصــوات المتعالية، كان يفكــر بتلك العينين اللتــين لم تدعــاه يذهب مستقرا، او انه هو الــذي كان يعتقد انهما كذلك فعلتــا، عيون باربوسا تلك، اذ لم يعلم ما اذا كانت بعينيها تنظر له نظرة اعجاب لبقائه حيا مــن دون بقية الرجال، او انها نظرة الكراهية لكونه قد نجــا، فيمــا هلك عريسها مع باقــي الرجال في عاصفة الامس، وفكر في ان باربوسا قد تتمنى الان لو ان راموس كان قد هلك لينجو بدلا عنه عريسها الراحل، أخذ عقله من التفكر بكل تلك الاحاسيس وتوجه الى كوخه، تاركا جلبة النســوة تبتعد مع ذلك الحصان البني عائدات الى عمق الجزيرة، فيما شعــر هو بأن عليه النوم مبكــرا هذه الليلة، فهو لم يخرج الى العمل ببيع الماء اليوم بسبب ما جرى، واصبح لزاما عليه الخروج اليه يوم غد لحيازة قوت يومه ولو ان يبيع للنسوة فقط، وعندما اغلق باب كوخه وعلق فيه خشبة متشققة يستخدمها كقفل، عاد الى فراشه منتظرا نزول النوم من جديد، وتساءل في نفسه، كيف سيمكنه العيش على جزيرة من النساء فحسب! بل كيف سيبقي صوته الرجولي وحركات جسده المملؤة رجولة وهو يعيش

بـدءا من اليوم علـى هَفِينا التي تقطنهـا نحو الف امـرأة؟ كيف سيقي نفسـه من مكرهن وتلاعبهن به اذ اصبـح هو الاضعف على الجزيرة كفرد من جنس مغاير يعيش مع هذا العدد من البشر وهم من الجنس الاخر؟ لقد كان يعيشـ حياة هادئة لا تشوبها المشاكل قبـل هذه الليلة. فقد ترك له ابـواه هذا الكوخ وبضع دجاجـات قبل ان يسافرا على مـتن احدى البواخر الوافـدة على الجزيـرة ويخبراه بإمكانية عودتهما بعـد اشهر قليلة. اذ كان ابـوه يطمح لبدء تجارة بين جزيرةٍ قريبة وهفينا. تلـك التجارة التي اراد لها ان تكون مستقبلا لراموس الابن. وبسبب مرضه. احتاج ذلك الاب الى رفقة زوجتـه التي اخذهـا معه في تلك الرحلة لتكون بجانـب جسده المتعب في فيهـا. لكنهما لم يعودا منذ ذلك الحين. في ذات اليوم الذي حدث به الصدع العظيم في غرب ارضـ الجزيرة مخلفا وراءه الحافة المنهارة. وكاشفا عن نهر من المعـادن المنصهرة تحتها مما عرف ببركان هيـلا. كان عمره خمسة عشر عامـا حينهـا. عندما سمع مـن بعض القباطنـة والبحـارة الوافدين بين الفينة والفينة بسفن اخـرى على هَفِينا ان السفينة آسك قد اختفت في بحر الظـلام اثناء ابحارها نحو الشمال. ولم يتم العثور على اية معلومات بشأنها او بشأن ركابها المئة. ومنذ ذلك اليوم. بعد أن شب راموس. صار يبيع المـاء لسكان هَفِينا بدلوين يربطهما وتد يحملـه على كتفيه. يأتي بهما من عين رقراقة على تلة بعيدة عن مساكن الناس وينزل بهما نحوهم. وبما يحصـل عليه من بيع الماء. يشـتري ما يحتاجه من طعـام وبعض الملاءات والملابس وبعض الحنطة لدجاجاته وديكته. اذ لم يكن يشتري الماء لنفسه. حيث يبقي على بعض ما بدلويه لها.

عـاد ذهـن راموس الى هَفِينا ما جـرى عليها من حدثٍ اليـوم. وحينما بدأ يفكر بمخاوفه بشـكل اكثر جدية. تلاشى كل شيءٍ امامه. وغاص في نوم عميق.

الفصل 3

اختلط صوت العصافير التي يحبسها راموس داخل قفص في كوخه مع صوت طرقات هادئة على الباب ما لبثت ان تعاظمت. صحا وهو يفرك عينيه ويحاول النهوض. لا زال الوقت مبكرا على دخول اشعة الشمس الى داخل الكوخ. لكن الصباح كان قد اتى. والساعة الان تقترب من السادسة صباحا. وهو ما اشارت اليه الساعة الجدارية العتيقة المعلقة على خشب الجدار والتي بقيت مما تركه والدا راموس قبل رحلتهما الغامضة. عاد الطرق على الباب بشكل اعلى. ونهض راموس مقتربا منه. ازاح القفل الخشبي وفتح الباب. ليرى جسما انثويا ينظر الى الجانب ولم يبد منه وجهه. فتاة متخصرة ويبدو على جسمها وضع الملل من الطرق من دون اجابة. ولما التفتت الى اتجاهه تغيرت ملامح وجهها الى ابتسامة عريضة خلابة. رمقها راموس بنظرة رافقت دفقة من الضربات السريعة تحت اضلاع صدره. اخفى وجهه وراء الباب وغرف بعضا من ماء شربه الذي كان بدلو صغير وراءه. غسل به وجهه ومسحه بكم قميصه وتبدى من جديد ناظرا اليها..

كانت الفتاة ثلاثينية العمر بعينين سوداوين وشعر اسود فاحم. وقد ارتدت رداءا فضفاضا اسود زخرفت حافاته بخيوط ذهبية رائعة. اطالت النظر الى عيني راموس الذي بقي منذهلا للمنظر. فلم يحدث من قبل ان طرقت بابه امرأة بهذا الجمال. او لم يحدث ان طرقت امرأة بابه اساساً. سوى طرقات الجارات وهن يطلبن امه عندما كانت تقطن هنا قبل سفرها. حين كان حدثاً صغيرا.

فجأة. انقطعت النظرات بينهما. عندما تذكرت الفتاة ما كانت تضعه عند قدميها. فانحنت لتلتقط سلة كبيرة ضمت افطاراً معتبرا من

قطعتي خبز وصحن من الجبن وبضع حبات من الزيتون الاسود. فيما كانت قطع من البطيخ المقطع في صحن مقعر اخر. رفعت الفتاة -التي لم يعرف راموس اسمها- الصينية الى وركها. ومع ابتسامة مذهلة. دفعت بها اليه. واستغل هو الفرصة ليسترق النظر الى يديها. ووجدها خالية من اي حلقةٍ تشير الى انها متزوجة من قبل. وبعد ان تسلم الطعام منها. رمقته تلك الانثى بنظرة العائدة من حيث اتت. فتركته وتوارت خارج سور كوخه. فيما دخل هو بسلة الطعام متسائلا عما حمل تلك المرأة الى القدوم به اليه.

وضع راموس طعامه على الارض واستعد لتذوقه. لم يفكر فيما اذا كانت هناك اية نوايا سيئة خلف احضار الطعام اليه من غريبة تقطن ذات الجزيرة. مد يده متلمسا اولى حبات الزيتون. وبينما وضعها في فمه. وبينما شعر بالطعم اللاذع للزيتون ينتشر على مساحة لسانه بمرارة تشوبها الحموضة. طرق الباب من جديد. لكن راموس احس بان عليه التأني في الفتح هذه المرة. فهو يملك حجة التأخر عن فتح الباب. وحجته هي كونه على مائدة افطاره. لكن الباب طُرق مرة اخرى. رغم ان الطرق كان هادئا وبسيطا. لكنه اشعره بالانزعاج نوعا ما. ونهض عن طعامه ليفتح ذلك الباب. والذي ما ان سحبه عليه حتى رأى منظرا اشبه بالمنظر السابق. فقد كانت هناك فتاة عمرها حوالي الثمانية و العشرين عاما. تحمل سلة تحتوي على حليب طازج. القت عليه ابتسامة مشرقة وقدمت له السلة. قالت له بان عليه الاهتمام بصحته بدءا من الان. فهو الرجل الوحيد المتبقي على ظهر هَفِينا. ابتسم راموس لها شاكرا. ودخل الى كوخه وهو يتلمس التغير في تعامل نسوة الجزيرة معه. وعندما عاد الى طعامه وصب بعض حليب الفتاة في كأس كان قريبا. تذكر كيف كانت النسوة يعاملنه عندما كان مجرد ساقٍ في الجزيرة. فلم يكن

حضـــوره او غيابه يشـــكل فرقا في باحات منازلهـــن. عندما كنّ يجلسن تحـــت الشمس ويمشطـــن شعورهن ويدخل هو بدلائـــه في باحات بيوتهن لسكـــب المـــاء في دلاء تلك البيـــوت. لم يكن يغيرن مـــن طريقة جلوسهن او يشعـــرن بالخجل منه. فقد كـــن يعلمن جيدا انه ليس الا ساقٍ لا يتجرأ علـــى النظر اليهن بشغـــف او يشاكس لكسب انتباههـــن. فيما كانت ربات بيوت اخريات يأمرنه احيانا بتغيير اماكن اصائص الورد وحمل بعض الحاجيـــات مستغلات حضـــوره الى منازلهن. فراموســـ كان ودودا خدوما لا يـــرد طلب احد. تذكـــر كل ذلك على مائدته الغريبـــة هذا اليوم. واحس بالفـــرق في كينونته الجديدة. الرجل الاوحد على ظهر الجزيرة. وهناك بوادر تملـــق نسوية تتقـــرب منه لغرض الاحتفاظ بـــه ...كلٌّ لنفسها. شعر بان ذلك تغيير جسيم يحصل في جزيرة هَفِينا..

عـــاود راموس تنـــاول افطاره وهو يفكـــر في ذلك الانقلاب. بـــل كيف نست النسوة رجالهن الميتين بهذه السرعة وبدأن التملق له في محاولةٍ لكسبه بعـــد ساعات فقط مـــن حدوث الكارثـــة في الليلة الماضيـــة. كانت هناك مـــرآة قذرة في احدى زوايا الكـــوخ وقد طليت ببقايا الصابـــون والماء الجاف تعكس نور الشمســـ الاول الوالج الى داخل المكان. لفتت تلك المرآة نظره. فـــترك طعامه وهو يلوك بعضه وتوجه نحوها. مسحها بيده و ازاح بقايا الصابـــون الجاف الملتصـــق عليها. راح ينظر الى وجهـــه لأول مرة باهتمام. لقد اصبح شخصا مهمـــا الان. وصار لزاما عليه الاهتمام بمظهره. نظر الى شعـــره البني الملتوي على بعضـــه. والقى نظرة الى شاربيه المعقوفين بتواضع. كان لونهما يقترب من الذهبي عندما القت الشمس نورها عليه مخترقـــة احدى شقـــوق جدران الكـــوخ. كشر عن اسنانـــه مقتنعا بدرجة بياضهما في المـــرآة. ثم القى نظرة الى جسمه الابيض شاعرا بأهميته في هذه المرحلة. ولأول مرة. وجد راموس نفسه سعيدا للغاية. سعيدا لكونه

الرجل الوحيد على ظهر الجزيرة، وان هذا الصباح قد بدأ بامرأتين طرقتا الباب عليه لتقدما له الطعام بلا مقابل، كان سعيدا لكونه يأكل الان من دون ان يذهب لسقاية سكان الجزيرة بتلك المهمة الشاقة والمهنة الأشق من اجل اجر يشتري به افطارا كهذا، ترك المرآة وراح يطوف راقصا حول صينية فطوره، يلتقط حبة الزيتون ويقذفها بين شفتيه، ثم يغني اغنية قديمة من أغاني الجزيرة، كان مطلعها يقول:

عش في الدنيا وتهنَّ ..
سيكُنَّ لوحدكَ هُنَّ ..
اجملُ مافي هفينا انتَ ..
ملكٌ تحكمُ في الجنة ..

ثم ملأ كوخه ضحكا و حبات الزيتون تتقافز من اصابعه الى فمه، كان يلوكها بابتسامة عريضة، القى باقي الحبات في الصحن وعاود النظر الى المرآة، رفع شعره عن جبينه، وهز راسه كمن يهزه للنفي، جلس على مائدة طعامه بسرعة وراح يلتهم الخبز والجبن والبطيخ، حاول ان ينهي اكله سريعا، فشرب الحليب بشراهة، ثم مسح يده بملابسه ونهض ماشيا نحو الباب، فتحه ببطء ناظرا من خيطه الطولي الى الخارج، قلب بعينيه يمينا وشمالا، وتأكد بان لا واحدة من سكان الجزيرة قريبة او تراقب منزله، فانسل منه الى الباحة الخارجية، والتف وراء الكوخ وسط ركض وفوضى الدجاج حيث رحن كلهن اقتربن منه آملاتٍ ان يكون قد حمل اليها الطعام كما يفعل في كل يوم، لكن راموس كان قد تجاهلهن وابعدهن عن طريقه، تحرك الى دلو ماء كبير يوجد هناك، علق ملابسه بسرعة على مسمار كان في جدار الكوخ، مبقيا على سروال داخلي متواضع، وراح يغرف الماء ليستحم.

لقد ادرك ان عليه ان يهتم بمظهره بدءا من الان. فجميلات هَفِينا يعدن من اجمل نساء الدنيا. لم يعد ذلك الساقي الذي كان يضع الماء عند اقدامهن. بل اصبح هو مركز الاهتمام الكبير والعطف والانتباه. كان يحاول ان ينهي حمامه البارد بأسرع وقتٍ قبل ان تُطرق عليه الباب او تلاحظه اي من النسوة من خلف سور كوخه . فهناك العديد من الفتحات التي تركت في سور الكوخ يخشى راموس ان تكون مجالا لعيون نساء هَفِينا لينظرن منها اليه في هذا الحال. كان يتمتع بجسم ممشوق ذي بشرة حنطية فاتحة. فيما كان شعره الملتوي على بعضه سمة لم يغيرها ابدا. اما عضلات جسمه. فقد كانت عضلات ساقٍ اعتاد على حمل الماء يوميا منذ سنوات ليست بالقليلة. لكنه رغم كل مواصفاته تلك. لم يكن قد فكر بمنافسة رجال الجزيرة. فجلهم كانوا يملكون الجمال وكثيرا من المال و الحيوانات مما لا يجعل راموس في المقدمة. وعلى الرغم من انه كان يشتكي من نفسه. فهو يصف ذاته احيانا بالجبان الذي يخشى التقرب من النساء. لكنه كان يبرر ذلك على انه حفاظ على سمعته كساقٍ. فان صادف ان فُهم اي تصرف منه تجاه اي امرأة على انه تودد او تحرش. مُنع من دخول المنازل للسقاية. وخسر عمله وباتت سمعته سببا لإقصائه يومذاك الى الابد.

كان الماء ينساب على جسد راموس تحت اشعة الشمس التي باتت تتلألأ على كتفيه وصدره. لقد بدأ يوم جديد في هَفِينا في تلك الساعة. اذ تعالى صوت الدجاج والطيور. وبانت اصوات الابقار والأفراس. انهى راموس حمامه وبدأ يجفف جسمه بقطعة قماش كانت هناك. كان يصفر بصوت منخفض في ثاني ايامه كرجل منفرد على ظهر هَفِينا. وفيما تهاوت قطرات الماء من اطراف وجهه وشعره الملتوي. وبينما كان يهم بتجفيف اخر مناطق ظهره. انزاحت عيناه على فتحة بسياج الخوخ. ليلمح من خلالها منظرا لم ير مثله في حياته قط.

الفصل 4

من بين الشقوق في جدار كوخه العتيق، واثناء بدئه بارتداء ملابسه، كان راموس ينظر الى شباك الكوخ المقابل لكوخه، حيث لم يكن يفصل البيتين عن بعضهما سوى مسافة صغيرة استغلت لوضع بعض اكداس القش على الارض لصالح المنزلين، لقد بان له من داخل شباك ذلك الكوخ منظر لم يمر به من قبل، كانت فتاة في السابعة عشرة من العمر بشعر ذهبي منسدل بضفيرتين وقد بان ثدياها المراهقان من ظلمة الغرفة التي هي فيها، كانت تنظر إليه نظرات ناعسة، ويبدو انها كانت كذلك مذ تعرى من ملابسه وبدأ بغسل جسمه الحنطي، لم تشأ لعينيها ان تفارقا منظره، رغم نظراته المباشرة نحوها، الا انها بعد ثوان، اغمضت عينيها بشدة واقشعرت بعنف، ثم التقطت انفاسها وحولت نظراتها له الى الغضب، فاقتربت نحو النافذة وصفقت الشباك بقوة، كان راموس لايزال منذهلا لما يرى، ما الذي دفعها الى التعري على مسافة من النافذة المقابلة لبيته، ولماذا نظرت اليه بكل هذه الجرأة، ولماذا بعد ان كانت تنظر إليه بلا استحياء اندفع الغضب اليها فجأة لتصفق النافذة بقوة، في النهاية، لم يبق في ذهنه سوى المنظر الذي رآها به، منظر الشابة العارية.

ارتدى ملابسه على عجل وهم بالعودة داخل كوخه لحفظ ما تركه من الطعام وترتيب المكان، وعندما انعطف الى الركن الاخر منه في طريقه نحو الباب، تفاجأ بامرأة تبلغ نحو الثلاثين من العمر وهي تجلس في الباحة لتطعم الدجاجات، شعر ببعض الغباء حينها، فهو لم يلاحظ ان صوت الدجاجات قد خفت منذ مدّة وجيزة، وان ذلك يعني ان احدهم قد دخل الباحة ليقوم بإطعامها، لكنه سامح نفسه على عدم انتباهه هذا، فما رآه قبل قليل من بيت الجيران ذهب بعقله، وربما بسمعه ايضا، اقترب متنحنحا من المرأة التي

كانت ترتدي جلبابا اسود طويلا وتضع شالا باللون ذاته على راسها، التفتت اليه، وشعر راموس بانه ينظر الى جمال يندر رؤيته في هَفِينا كلها، كانت حنطية البشرة، بعينين كحيلتين سوداوين كبيرتين، وقرطٍ معلق بسلسلة طويلة تداعب رقبتها، وكان شعرها اسود ينحدر منه على جبينها، فيما كانت يداها رائعتي الجمال وهي تنفض حبوب طعام الدجاج عنهما، نهضت ناظرةً اليه بابتسامة خلبت عقله، حين بدت نصف شفتها السفلى تتلاشى خجلا تحت اسنان كلؤلؤ سواحل هَفِينا الاغلى في كل الدنيا، داعبت مقدمة شعرها بأظافر تشبه قطع الزجاج المصقول، واقتربت منه بعطر غمر رئتيه كما يغمر الماء رئتي غريق، احنت له راسها جانبا واخبرته بأنها هنا لتسال عن احتياجاته بعد ان اصبح لزاما على هَفِينا المحافظة عليه، كان راموس لا يزال مترددا في ابداء انجذابه لها، فهو على الرغم من بلوغه الثالثة والثلاثين من عمره الا انه لم يكن يمتلك من الخبرة في النساء ما يفسر له نظرات كهذه وتصرفاتٌ كتلك، فعمله بالأمس القريب كساقٍ لم يتح له التعرف على النساء على انفراد اوعن قرب، شعر بنفسه كغبيٍ لا يفهم ما تعنيه هذه الاشارات وتلك، لكنه اشار لها بانه كان على وشك ترتيب منزله من الداخل بعد ان تناول افطاره، قالت له بانها ستساعده على ذلك، وافسحت له المجال ليمر قبلها، ولما مشيا حتى وصلا باب الكوخ، وعند الباب، التفت راموس الى الفتاة سائلا عن اسمها، اجابته بغنج نساء العالم كلهن حين يحادثن رجلا يعجبن به بان اسمها ايفا، ابتسم لها ودفع الباب داخلا، وحين كانا في الداخل بعد ان اغلقت هي الباب بدفعةٍ من قدمها، نظرت هي الى المكان وبقايا الطعام الذي يبدو انه لم يفتح شهية راموس بما يكفي، فهو لم يأكل منه الكثير وقد ابقى على اكثره في مكانه، توقع راموس ان تساله ايفا عن سبب عدم انهائه لطعامه، لكنها بادرته السؤال عمن جلب له الطعام، وكانت بعض لهجتها قد تغيرت.

شعر راموس بحدة نبرتها وهي تسأله عن ذلك، ابتسم ابتسامة حرجة، لكن ايفا التي تسلل اليها بعض الغضب بسبب فكرة ان غيرها كانت قد سبقتها اليه دفعتها نحوه، فصارت لا تبعد عنه سوى سنتمترات قليلة بمقابلته، حتى شعر بعطرها الشبيه برائحة عدة انواع من الزهور مجتمعة، كانت انفاسها كنسيم البحر وقت الفجر، وضعت راحتي يديها على صدره، وتغيرت نظرتها لتتأرجح بين الغنج والشراسة، فيما كان قلبه كطبل يعزف اغنية الحرب، تسللت كفها اليمنى الى خلف رقبته، وجذبته برقة بالغة الى وجهها، كان قلبه يزداد نفيرا من شدة ضرباته، لكنه كان مستسلما لعزفها على قيثارة جسمه، شعر بان خدرا بدأ يدب بكل ما فيه، وان الصورة امامه تمر ببطء شديد، وان نعاسا غريبا بدأ يتسلل اليه، حتى اطبقت شفتيها على شفتيه، كان ذلك بالنسبة إليه كانطباق السماء على الارض، موقف لم يمر به من قبل ابدا، لثمت ايفا شفتي راموس بشفتين كان طعمهما كماء الورد، وراحت تقبله بعمق كمن تذيقه راحة الدنيا كلها، فيما يدها الاخرى تتمسح بظهره بحنينٍ يكاد يعد تنويما مغناطيسيا له، شعر بانه يكاد يركع لثقل وزنه على ساقيه، طالت قبلتها حتى تسلل لسانها الى ما بين شفتيه، ومن دون ان يحس، امسك بها من خصرها الذي كاد ان يحتويه بكف واحدة لهيافته، كانا سوياً مغمضين اعينهما على الرغم من ان شعاع الشمس الداخل نحو وجهيهما من شقٍ في جدار الكوخ ينساب كنهر من الذهب الدافئ المنصهر، وراح الاثنان يغوصان بقبلة سارعت نبضيهما كتسارع جريان النهر في موسم ذوبان الثلوج، حتى افترقت شفاههما وانفتحت اعينهما على بعض، ليجدا نفسيهما في حالة سكر عميق، جذبت ايفا راموس الى فراشه البسيط، ووسدته مكانه الدافئ لتركع امامه، ولتتقدم نحوه بضع خطواتٍ على ركبتيها، لامست قدمها سلة الطعام الموضوعة

وراءهـا، فدفعتها بها لتزيحها بعيدا، ابعدتها هكذا عامدةً لتشعر بانها دفعـت من اتـت بها الى هنا بـذات الطريقـة، بقدمها وظهرهـا نحوها، ووجهها نحو راموس الذي كاد صدره ينفجر لما يراه من موقف يراه لأول مـرةٍ في حياته، انحنت عليـه، وانسابت خصلة شعرها الاسود اللامع من تحت شالها الى قرب وجهه الذي اقتربت منه كثيرا، ازاحت شالها ورمت به بعيدا على الارض، وادارت راسها بنصفي دورتين متعاكستين لينحل منه نهـر اسود طويل من ذلك الشعـر، واقتربت بأنفاسها من انفاسه، وراحت تمطره وابلا من القبلات ويدها تفتح ازار ثوبها الطويل، ابعدت وجهها عنه لوهلة جالسةً على خصره، وخلعت ثوبها الذي لم يكن تحته شيء.

كانـت اشبه بحـواء التي اغـوت آدم حينمـا اقنعته بالتفاحـة بدلعها، بجسـم حنطي ممشـوق ونهدين يرفعان رأسيهمـا كحارسين على بوابة صدرهـا، لمسـت ثوبه وجذبتـه عنه، وازاحـت اخر قطـع ملابسه لترمي بهـا، فيما كان هـو بقمة استسلامـه غير المشروط امـام غزوها له، لقد انهار راموس امام ايفا بلا مقاومة، وتسلل الخـدر الى جسمه اكثر فاكثر، انحنـى خيط الشمس لمرور الدقائـق، وراح ينساب على جسميهما وهما يحتضنان بعضهما، خالقين لحظات استمتاعٍ شبقة التقت فيها ذكورة راموس لأول مـرةٍ في حياته بأنوثة حسناء كإيفـا، راحت تضغط جسمه وذكورتـه تحتها كفارسةٍ متمرسة، وامتلأ المكان بصدى صرخاتهما وهما يفعـلان ما فعلته الخليقة منذ بدئهـا، وكنصفي تفاحة يكمل احدهما الآخـر، كان ما بجسميهما يكمل بعضـه رائحا غاديا، حتى انفجر بركان الآهات راميا بحممه في انفاسهما، وانهار الاثنان مستلقيين على الفراش وسط ذلك الكوخ العتيق.

الفصل 5

عند الميناء الشمالي لهَفِينا، رست السفينة الخشبية الكبيرة آسك والتي تمر من هنا كل شهر لتبادل البضائع مع سكان هفينا، وما اعتاد عليه سكان الجزيرة هو ان بحارة آسك هم من الهنود الحمر الغرباء المظهر وذوي البشرة الداكنة جدا، يرتدون اسنان الحيوانات كقلائد وتمائم، و يغطون اسفل بطنهم بأوراق من الكتان، وهم حفاة عبثوا بأجسامهم بالوشوم والألوان التي يستقونها من بقايا الحيوانات النافقة. لطالما شعر سكان هَفِينا بالاشمئزاز منهم، كما انهم لا يفهمون مطلقا كلام سكان الجزيرة، فتتم المقايضة بالبضائع فيما بينهم عن طريق لغة الاشارة فقط.

كان بحارة آسك لا يتجاوزون الحدود ابدا، فهم لا يريدون ان يكونوا خطرا على احد، يدافعون عن سفينتهم فقط اذا كان هناك خطر، وهم من البحارة المتمرسين الذين يعرفون مكان جزيرة هَفِينا ويصلون اليها لإدامة تجارتهم، فنساء هَفِينا بارعات في صناعة الحرف اليدوية الدقيقة التي اصبحن يصنعنها للشعوب الملونة التي تأتي منها اسك، فيبيعها بحارة السفينة على بني جلدتهم كنوع من الاستيراد، فيما يقدمون لسكان هَفِينا اي احتياج يطلبونه، يسجلونه رسما على جلود الماعز، ويذهبون للحصول عليه خلال رحلاتهم العديدة في العالم، ويعودون بعد شهور لتسليمه لطلابه في هَفِينا، ويقبضون مقابله بعض المحاصيل التي تزرع على الجزيرة، اضافة الى المصنوعات اليدوية التي تصنعها نساء هَفِينا، وبعضا من المعادن التي تزخر بها الجزيرة.

اندفعت نسوة هَفِينا كالعادة الى الميناء مع سماعهن صوت البوق الذي يطلقه بحارة آسك ايذانا بوصولهم، البوق المصنوع من قرن كركدن مثقوب، لقد اعتادت هَفِينا على هذا المنظر، النسوة والاطفال يندفعون

الى الميناء مع وصول السفينة، ويستعدون للمقايضة واملاء الطلبات على البحارة السود. انزل سلم من الحبال والخشب من طرف آسك، ونزل البحارة السود الى ارض الجزيرة، ورغم شبه انعدام الرجال في هَفِينا بعد العاصفة الرعدية الاخيرة التي ابقت على راموس وحده حيا عليها، الا ان نسوة هَفِينا لم يردن ان يتقربن لأي من بحارة آسك، ذلك انهن لا يطقنهم لرائحة الجلود المنفرة ودماء الحيوانات في ملابسهم تلك التي يزينون بها انفسهم، اضافة الى الاسطورة التي تناقلنها اماً عن جدة، بان الآسكيين الذين تناوبوا على هَفِينا منذ اول سفينة رست هنا، ان عاشروا امرأة من غير قومهم وانهوا مضاجعتها، فانهم سيقومون بقتلها فور انتهائهم منها.

قدمت النسوة ما لديهن من صغار الماعز الاناث الزائدات وعشرات الدجاجات ومئات القطع من المزركشات والمصوغات اليدوية الى البحارة الذين سيقضون نحو ثلاث ساعات للمقايضة وجمع الطلبات والاستراحة قبل ان يطلقوا بوقا اخرا ايذانا بموعد الابحار والرحيل الى مكان اخر من العالم، وتسلمت النسوة ما اوصين عليه في الرسو السابق لآسك، حيث اوصى بعضهن على ثياب واخريات على مساحيق تجميل ومرايا وساعات دقيقة، كما اوصين على فوانيس ومصابيح نحاسية تعمل بزيوت تترسب على اطراف فوهة بركان يقع على اخر اطراف الجزيرة، وهو بركان هيلّا الخطير والشديد السخونة.

الا ان صوت نحيب بدا يتصاعد عند المرسى، وهو ما اثار استغراب بحارة آسك، اذ لم يروا نساء هَفِينا المدللات في السابق ينتحبن ويبكين وتصبّر احداهن على الاخرى، كان جو من الحزن يخيم على المرسى الكبير، فقد تسلمت بعض النسوة حاجيات كن قد اوصين عليها لأزواجهن في الرسو السابق لآسك، وهاهم البحارة يجلبون تلك الاغراض، لكن ازواجهن كانوا

قد رحلوا في ليلة العاصفة الرعدية التي قضت عليهم وابقت على راموس، كان بعضهن يلثمن ملابس اوصين عليها لهم ويبكين، واخريات بكين على عطور من ورد الياسمين كن قد طلبنها لهم كمفاجآت في اعياد مختلفة تخصهم كأعياد ميلادهم او ذكرى زواجهم منهن. تنابس الاسكيون لما رأوا مستغربين، الا انهم انهوا مهمتهم في المقايضة وجمع الطلبات، وخلدوا الى الراحة على رمال شواطئ هَفِينا الشاسعة.

كانت ايفا قد ارتدت ملابسها وهمت بمغادرة منزل راموس بعد ان استغلت خلو المنطقة المحيطة بكوخه من النسوة و الساكنات، فالجميع الان على الميناء قرب اسك، اذ كانت قد اعدت لخروجها بعد سماع صوت البوق الاول، استغلت خلو المنطقة وطبعت قبلة على شفاه راموس، ووعدته بان ما حدث سيتكرر قريبا، وان عليه التخلص من الطعام الذي جٌلبه له الاخريات، فهي ستحاول ايصال القوت له كلما كان ذلك ممكنا. خرجت من باب الكوخ ونظرت الى جانبيها، كان المكان مقفرا حقا، بدأت تحث الخطى الى مسكنها على الجانب الاخر من حقل الكرز الصغير الذي يقابل كوخ الساقي العتيق.

لم تنتبه ايفا، الى فتاة بعمر المراهقة في المنزل المجاور الذي لا تفصله عن كوخ راموس سوى بضعة اكوام من القش تنظر اليها من نافذة صغيرة، وقد شعرت بغضبٍ شديد.

الفصل 6

بعد ساعات من رحيل آسك الى وجهتها التالية، وبعد ان املى البحارة الاسكيون طلبات نساء هَفِينا ليجلبوها في الرسو المقبل، وجدت نساء هَفِينا انفسهن يمسكن بالعديد من المشتريات والهدايا التي اوصين عليها لأزواجهن في المرة السابقة، لكن ازواجهن واخوتهن وكافة الذكور كانوا قد قضوا، فبقيت الهدايا لديهن لا يجدن من يدفعن بها اليهم.

لدى بدء مغيب الشمس، كانت باربوسا الحسناء تعيش اسوأ حالات حزنها بعينين تفيضان دمعا، لقد اوصت من قبل زواجها بنحو شهر بحارة الاسك لجلب قلادة بسن من العاج المصقول كهدية تبيتها لزوجها الذي سيكون قد مضى على زواجها منه نحو شهر، لقد دفعت لهم بمصوغات صنعتها بيديها طيلة شهرين مقابل قلادة سن العاج تلك، والان، رحل زوجها تاركا تلك القلادة تقلبها بكفيها منتحبة بائسة، كانت تنشج كمن لدغتها افعى افريقية، في كوخ بقلب هَفِينا ينيره فانوس ضئيل، وفي احدى غرفه أم مريضةٌ تئن من ألم راسها، لم تخسر باربوسا زوجها فحسب، بل خسرت أباها وأخاها الذين خطفتهم العاصفة الرعدية اللعينة.

نظرت من النافذة لائمةً السماء على فعلتها، وعادت لتنحب على رحيل اغلى ثلاثة عرفتهم في حياتها، فيما سقطت قلادة العاج من يدها الى الارض، حيث غطت وجهها بكفيها باكيةً بحرقة.

في تلك الاثناء، كانت فكرةٌ واحدة هي التي تفكر فيها العديد من نسوة هَفِينا، كيف يمكن الاستفادة من تلك الهدايا التي اشترينها لبعض احبابهن من الرجال، وتسللت ذات الفكرة الى رؤوسهن، راموس، رجل الجزيرة الاوحد، كل منهن تريد له ان يكون لها، وعليه ان تكسبه بهداياها،

او بانوثتها وغنجها، وافكارها النسوية. حل المساء، وبدأ صفير الصراصير البرية يتعالى وهي تعزف بأقواس سيقانها الى الوراء، واكتمل بدر منتصف الشهر فوق هفينا، صانعا هالةً من النور في كبد السماء الكئيبة، كان راموس يلمع المرآة القذرة في كوخه المنار ببعض الشموع المشتعلة، فقد اقسم اليوم على جعل الكوخ نظيفا من بقايا عبثه المتواصل، كانت المرآة معلقةً على جدار الكوخ مستندة الى احدى اعمدته الخشبية، فيما كان هو يمسحها بخرقة وجدها في احدى زوايا المكان، اذ راح يصفر لحن اغنيته التي غناها هذا الصباح..

ومن دون ارادة منه، انزاحت عيناه الى شق بجوار المرآة، بدأ بؤبؤاه يضيقان كي يتضح ما يراه وسط الظلام في الخارج، وفجأة، صعق لما رآه هناك، وجفل حتى كاد يسقط المرآة من مكانها، عاود النظر، لقد كان وجه الفتاة المراهقة التي رآها في الكوخ المجاور هذا النهار اقرب بكثير، كانت تنظر له ذات النظرة، لكن من داخل فناء كوخه، خلف جدار الكوخ تماما.

لم ير راموس -حين كان ساقيا- هذه الفتاة الا مرة واحدة وعلى استحياء، فهو يعلم ان والدها شديد التعصب بالحفاظ عليها وعلى عائلته، لم يكن ليسمح لها بالخروج من منزله، وحين كان راموس يضع الماء ذات يوم بدلو كبير في منزلها، تسللت عيناه الى قدمين خلابتين كانتا تقفان قريبًا منه، رفع راسه للنظر الى صاحبتهما، كانت تلك الفتاة بضفيرتين شقراوين على كتفيها وهالتين ورديتين على خديها تقف له مبتسمة، لكن نداءا هز المكان جاءها من داخل المنزل، اذ نادى والدها بغضب شديد كغضب لبوة سرق منها اشبالها داعيا اياها للدخول الى المنزل وترك الساقي، ومنذ حينذاك، لم ير راموس تلك الفتاة ابدا، اما الان، فيبدو ان رحيل والدها بعاصفة الامس قد حررها من اوامره وتعصبه، لتفتح نافذة شباكها هذا الصباح، وهي تنظر لراموس مستحما في باحة كوخه،

ولتاتي الان الى باحة الكوخ بنفسها تنظر له من شق في جدار بيته.
تلفت راموس لا يعرف مايفعل، فلا زال لا يعرف نوايا فتاة جريئة تحررت قبل ليلة واحدة من والدها السجان، تحرك مسرعا باتجاه الباب، وسحبه باتجاهه وخرج نحوها بسرعة، لكنه عندما انعطف نحوها رآها وهي تحاول العبور من سياج الكوخ الى خارجه باتجاه منزلها، اسرع الخطى راكضا وامسك بها من كاحلها، حاولت الفتاة الافلات من قبضة الساقي، دفعت رجلها بعنف لتفلت يده عنها، لم تكن لتصرخ، لكن انفاسها كانت ترتجف كوتر عودٍ لم يدوزن، "شششش.." قال لها وهو يخشى ان يسمعهما احد، التفتت الفتاة نحوه بنظرة حطمت قلبه عن اخره، كانت عيناها قد امتلأتا بالدموع حتى نصفيهما، فيما راح انفها يزداد احمرارا، ويبست شفتاها الورديتان من نفسها السريع، وتدلت احدى ضفيرتيها على كتفها، غاصت عينا راموس بعينيها، ودامت نظرتهما لثوان ارخى بها هو يده عن كاحلها، لكنها فجأة، ركلت في الهواء من جديد وحاولت بشكل اعنف الفرار من يده، الا انه شد على كاحلها مرة اخرى، وبينما هي تحاول الفرار وبعد عدة ركلات حاولت بها الافلات من قبضته، نظرت الى عينيه مرة اخرى وسكن كل شيء مجددا، كان الدمع قد فاض على خديها هذه المرة، تركت جدار السياج المدعم بالخشب، وهوت من اعلاه نحو راموس، طوقته بذراعيها بشوقٍ عارم، وغاصت في صدره وصوت نشيجها يتواصل، وطوقها هو بذراعيه كأبٍ يحتضن ابنته.
شعر راموس بحرارة دموعها على صدره، داعب رأسها بكفه فيما احتضن خصرها بالأخرى، جذب شعرها الى الوراء ونظر الى عينيها، كانت دموعها الساخنة لا تزال تنبجس عن مآقيها شاقة خدودها بماء مالح، نظرت اليه بعينين بنيتين تشبهانِ بلورتين في الظلام، بدت ناظرةً الى عينيه بشبق المجرةِ كلها، ارخى يده من حولها واومأ إليها برأسه نحو الكوخ، زمت

شفتيها العطشتين وهزت رأسها بهدوء، واخترق صوت عزف الصراصير صوت خطواتهما الى داخل المكان، حيث اغلق راموس الباب وراءهما، وجلس على ارض الكوخ ناظرا نحوها.

توقف جريان دموعها وهي واقفةٌ تنظر اليه، كان يحاول تهدئتها بشكل غير مباشر، سكب بعضا من الماء في قدح وقدمه نحوها، جلست على ركبتيها وراحت تلمس الماء بشفتيها وتسكب منه في جوفها، ثم وضعت القدح ونظرت نحو راموس، لتخفض نظرها نحو الارض في استحياء، كان احد خيوط ثوبها السماوي اللون مقطوعا من جهة كتفها الايسر، يبدو انه قطع اثناء عبورها سياج بيته، فتدلى طرف ثوبها عن صدرها من جهة اليسار، متكشفا عن بياض ناصع يفيض شبابا وجمالا، ما اسمك؟، قال لها، ولأول مرة في حياته، سمع صوت هذه الفتاة التي عرفها صامتة منذ ان رآها في دار والدها حينما كان يجلب الماء له، دوراثا! اجابت بصوت خفيض، عاود السؤال: دوراثا! ماذا كنت تفعلين هذا الصباح وانت تنظرين لي استحم؟ قالت: احتجت اليك!، كيف؟ سأل من جديد، لم تجب هذه المرة، لكنها رمقت جسمه من رقبته الى ما دون صدره بعينيها البنيتين هذه المرة، ففهم راموس انها كانت تشتهيه لما رأت جسمه القوي يستحم عاريا في فناء كوخه، مد إليها يده بهدوء، اذ لم تمد له يدها بدورها، لكنها انقضت عليه بشراسةٍ لا تنسجم مع براءة عينيها، وراحت تمزق رقبته تقبيلا وعضا، حتى سحبت عنه أزاره لتقد عنه قميصه، وتنهش جسمه بشفتيها وينهش هو ثدييها اللذين انزاح عنهما القماش، وبرزا بقمتين ورديتين، اذ شهد فانوس الكوخ مضاجعة راموس الثانية لهذا اليوم، على الفراش ذاته..

الفصل 7

كانت قد مرت نحو نصف ساعة تلذذ بها راموس بجسم دوراثا الغض وتلذذت هي برجولته، حان وقت عودتها الى منزلها ، كان عليه ان يؤمن لها الطريق من مخاوفه، مخاوفه التي لا تعدو رؤية احدى نساء هفينا له ، ابصر الدرب لها نحو طريق العودة، واومأ لها بالخروج، كان قد اعطاها خرقة لتغطي بها راسها وبعض وجهها الى الخارج، اقتربت منه عند الباب، نظرت الى عينيه، وامسك بها من يدها هامسا: لا عبور من السور بعد الان!، قد تؤذين نفسك به!، اومأت دورثا بنصف ابتسامة، وخطفت قبلةً عجلة من شفته السفلى، ثم تحركت خارجة من الكوخ العتيق.

وهي تحث الخطى، كانت عينان سوداوان حادتان قد رأتا القصة بأكملها، منذ عبرت الشابة الى كوخ راموس، حتى خرجت منه، حثت المرأة الخطى بسرعة نحو منزل في اطراف هَفِينا عند ساحل استقبال آسك، حيث يقع منزل السيدة مارلين، وهي ارملة مدير التموين في هَفِينا والذي كان يدير عملية المقايضة العامة للجزيرة مع الاسكيين، حيث تولت السيدة مارلين المهمة من بعده بطلب من نسوة الجزيرة عقب رحيله في عاصفة الجزيرة قبل ليال.

كانت السيدة مارلين ذات الخمسين عاما تعد من اقوى نساء الجزيرة واكثرهن حكمة، فقد قادت مع زوجها عمليات المقايضة العامة لصالح الجزيرة لعشرة اعوام مضت، مؤمنة لها تموينا كافيا خلال فترة الشتاء وقلة الموارد واستطالة فترات مجيء آسك الى الجزيرة بسبب العواصف. بنت السيدة مارلين وزوجها احد اكبر المنازل على ظهر الجزيرة لعائلتهما، الا ان تعس حظهما وقف عقبةً في طريق حصولهما على ابناء، فلم تنجب هي لزوجها الراحل اي ابن او بنت، على الرغم من زواجهما الذي

مضى عليه نحو اثنى عشر عاما. طُرق باب منزل عائلة السيدة مارلين في تلك الليلة في وقتٍ متأخر جدا. وانيرت مصابيح البيت على عجل. فتحت ربة المنزل الباب الخشبي. وتفاجأت بالطارق. فقد كانت تلك ايفا. تلتقط انفاسها نفسا بعد نفس. وقد حملت كيسا من الطعام رمت به داخل منزل السيدة مارلين في غضب. والجةً الى الداخل..

"ايفا ماذا حدث"!؟. قالت السيدة مارلين. "تلك الساقطة!". اجابت ايفا. واكملت: "كنت قد استحوذت على راموس هذا الصباح وارحته عن اخره. وعدته بان اجلب له الطعام كلما كان هذا ممكنا. وعندما وصلت حقل الكرز سمعت صوت نشيج وحركة غريبة في فناء منزله. اقتربت اكثر متوارية بين اشجار الحقل. كانت تلك بنت ذلك المخبول جار راموس وهي تحاول الفرار منه بعد ان قفزت الى فناء بيته". ردت مارلين بهدوء: "وماذا حدث بعدها؟". اكملت ايفا: "لقد نزلت لتحتضنه. ودخلا الى الكوخ برويّة. لا شك انهما تضاجعا. فقد التقطت قبلة منه عند المغادرة. وكانت مرتاحة عن اخرها!".

اهتزت حبال السيدة مارلين الصوتية بضحكةٍ خافتة اغضبت ايفا كثيرا. "سيدة مارلين! انت تضحكين؟!".

اجابت الاخيرة: "ايفا عزيزتي. لا تتصوري ان رجلا كراموس سيكتفي بك او بعشرةٍ من امثالك ولا بنساء هَفِينا كلها. يجب ان تفهمي وتتعايشي مع مفهوم انه الرجل الوحيد هنا. يجب ألّا نفقده. ويجب ان يفعل ما يحلو له طالما هو الخصب الوحيد هنا. كل امرأة هنا تتمنى لو انها تقربت من راموس الان ولو لساعة. انت محظوظة لكونك من اوائل من ضاجعوه ويجب ان تكوني سعيدة لذلك! الان قولي لي. كيف كان اثناء المضاجعة؟".

اختفت ملامح القسوة عن عيني ايفا فجأة. نهضت نحو مشعل النار في المنزل وتلألأت عيناها بالوان حريقه الصغير. قالت بهدوء: "كان كله

ساخنا، حارا، جريئا وعنيفا. لقد سكب على خدي قبلاته كدلوٍ من الخمر، وتدلى شعره على عينيه وهو ينظر إلي بشبق. كانت انفاسه كعبير حقل الكرز المقابل لبيته، صدره صلب كالصخر، ومنكباه تقف عليهما هَفِينا كلها. لقد احرق جسمي رغبة وانتشاءا، قبلني من خدي الى كعب قدمي، انهال علي بشفاهه الساخنة وقد اولج ذكورته في كما يولج الفارس سيفه بعدوه. كانت الساعة الخشبية تدق بمرور ثانية واحدة، فيما يهزني برجولته مرتين في تلك الثانية، دقائق شعرت فيهن ان الدنيا لا تعدو كونها ليلة مع راموس. كانت آهاته الرجولية تغصبني على الشعور بالبهجة، سيدة مارلين، انها من اروع ساعات حياتي!"، ثم تحولت نظرة ايفا الى الغضب مجددا والتفتت الى السيدة مارلين التي كانت جالسة تغزل صوفا بيدها وتستمع، صرخت ايفا من جديد، "لكن تلك الساقطة.."..

"شششش.." قالت السيدة مارلين، "عليك ان تهدئي، وتستوعبي اننا يجب ان نحافظ عليه، يجب ان يفعل ما يحلو له، يجب أن تشاركيه غيرك، لكن يجب ألّا تتحول عقول نساء هَفِينا كلهن الى جنس مع راموس فحسب، يجب ان تدار الجزيرة بطريقة تبقيها حية بنسائها بعد احداث العاصفة، وهذا لا يتم الا بحالة واحدة، على الرغم من انه رأيي الشخصي!"، ضاقت عينا ايفا وسألت: "سيدة مارلين، انت اكثر نساء الجزيرة حكمة وسياسة، لكن ما الذي تقصدينه بكلامك؟"، وضعت الاخيرة الصوف من يدها ونهضت لتسكب لايفا بعض الماء، "ايفا، برايي، يجب ان ننصب راموس ملكا على الجزيرة!"، لم ترد ايفا، وانصتت للمرأة التي اكملت: "..راموس يجب ان يكون ملك الجزيرة وحاكمها، ورجلها كذلك، ان تنصيب اي منا نحن النساء لحكم هَفِينا بعد رحيل مجلس حكمها من النبلاء في العاصفة امر خطير، ستحتكر الملكة المفترضة راموس لنفسها لغاية الجنس والنسل، بينما نهرم نحن الواحدة تلو الاخرى سائرات نحو حتفنا بلا

اي رجل يزرع فينا بذرته ليعاد نسل الرجال على هَفِينا من جديد، وبغضون عقود قليلة، ستندثر الحياة على الجزيرة، هذا عدا اننا نحن النساء قد نثور على الملكة ونقتلها للحصول على راموس، والذي ان سقط بأيدينا حينها، فسيموت تحت شفاهنا وفروجنا واقدامنا ونحن نتصارع عليه! ما سيؤدي لذات النتيجة، الاضمحلال والانقراض، لذا، راموس وحده من سيحكم هَفِينا، ولا اظن ان احدانا ستعارض هذا".

كانت ايفا تمسك بقدح الماء وهي تنصت لحكمة السيدة مارلين، قالت: "انت تريدين ان نكون جميعا ملكا لراموس يطلب اي منا حين يشاء؟"، هزت السيدة مارلين راسها وقالت: "هل عندك حل اخر؟"، طأطأت ايفا راسها، ثم نظرت الى السيدة مارلين بعينين متألمتين وقالت: "من قال ان راموس سيقبل بان يكون حاكما على هَفِينا؟"، "سيقبل"، ردت السيدة مارلين، "..فهو مجرد ساقٍ لم يعرف طعم السيادة يوما، وسيكون العرش امامه على طبق من ذهب، كل ما نحتاجه، هو ان نتحدث معه بهدوء، وحين موافقته، سنطرح الموضوع على بقية السيدات الكبار في الجزيرة، وعند الموافقة الاغلب، سنعلن راموس ملكا على هَفِينا"..

نهضت ايفا بأقدامٍ متثاقلة ونظرت الى السيدة مارلين، ثم اقتربت منها لتحتضنها بحزن، فيما ربتت السيدة على كتفها مهونة، كل شيءٍ سيكون على مايرام ايتها العزيزة.

الفصل 8

في الصباح، وفي منزل السيدة مارلين، كان عدد من النسوة الكبار في هَفِينا من ارامل المتنفذين السابقين فيها قد اجتمعن لدعوة السيدة مارلين الصباحية، حيث ستناقش معهن مستقبل هَفِينا بعد العاصفة الليلية، وبالطبع، كانت ايفا هناك، لقد حضرت ارامل كل مسؤول سابق في الجزيرة وهن يحوين خبرة كبيرة عن اعمالهم التي تخصص بها رجالهن سابقا ورحلوا عن الجزيرة في تلك العاصفة، "سيداتي.."، قالت السيدة مارلين، " انني وكزوجة احد مسؤولي الجزيرة الراحلين، ارى ان الوضع لا يمكن ان يبقى هكذا في هَفِينا، يجب ان تستقر الجزيرة وتتعايش مع وضعها الحالي"، نظرت السيدة سيمينا زوجة قاضي الجزيرة الاكبر لها وقالت: "اخبرينا عن رايك سيدة مارلين"، اجابت الاخيرة: "لقد عصفت بجزيرتنا تلك الرياح المميتة منذ ايام، حيث لم تبق لنا سوى راموس الساقي، في الوقت الذي رحل فيه ازواجنا ممن كانوا يحكمون ويديرون شؤون شعبنا البسيط على هذه الارض، وكما تعرفن، فإننا هنا وسط بحار هائلة فلا يمكن لنا ان نستورد الرجال، واقصد هنا بالرجال، اولئك الذين نريدهم ان يكونوا كفئا لمن فقدناهم، لا ذكورا يمتلكون بيضتين وخنجرا فحسب يطمعون لاحقا بارضنا ويعاملوننا معاملة سيئة، حتى انهم قد يستوردون نسائهم الى هنا ونصبح نحن نسوة من الدرجة الثانية .."، كان الصمت يخيم على الحاضرات، واكملت السيدة : "وكما تعرفن، فإننا ممنوعون من قبول عيش الاسكيين معنا على الرغم من طبعهم المسالم، لأننا نعرف جميعا خطورتهم بعد مضاجعة اي منا او من نساء هَفِينا، فمسالمتهم لا تدوم بعد المضاجعة كما تعرفن، بل انني اخشى ان يستحيل الاسكيون – وهم من القلة الذين يعرفون مكاننا في هذا

العالم- الى وحوش تغزونا في مجيئهم التالي والتالي بعد مرور اشهر. بعد ان عرفوا ان الرجال ماتوا جميعا ولم يبق سوانا نحن النساء وذكر وحيد. وهذا كله يحتم علينا اعادة النظر في وضع هَفِينا من جديد.."..

جلست السيدة مارلين وهي تتلمس ابريقا على طاولة مجاوره يحتوي على حليب عجول الجزيرة اللذيذ. واكملت: "اننا كبشر من جنس واحد هنا نبدو كقبةٍ شطرت الى نصفين واختفى احدهما. فبقي النصف الاخر مفتوحا للشمس والغبار والريح. وقد تتهاوى حجارتنا على بعضها عندما يبدأ تنافس نسائنا على الوتد الوحيد في هذه الجزيرة. ذلك الساقي البسيط. فقد بدأت حركات الاستحواذ على راموس منذ اول يوم بعد الجلاء العاصفة ودفننا لأحبتنا الرجال.."، نظرت ايفا إلى مارلين نظرة تحذُّر، " .. لذا. فإنني طلبت منكن المجيء الى منزلي المتواضع هذا اليوم. لاستمع لما تبدينه -سيداتي- من رأي قد ينقذ مستقبل هَفِينا. مع الانتباه الى اهمية مزاوجة راموس من اكبر عدد من النساء طيلة وجوده بيننا. فلعل زيجاته تعيد خلق الذكور واعادة توازن هَفِينا الى سابق عهدها. على الاقل عندما يصبح هؤلاء المواليد بعمر المراهقة"، زفرت ايفا نفسا كاد يحرق الاثاث الخشبي في المنزل، "انني.."، اكملت زوجة مسؤول تبادل البضائع، ".. اعي ان كل واحدة منكن بحاجة الى الامن الذي يخلقه الرجال بوجودهم بيننا. لكن سيداتي. ارجوكن. يجب ان يعيش راموس حياة الحاكم بيننا. كما يعيش الديك وسط قطعان الدجاج. يجب ان نوفر له كل شيء. ونحتضنه ونهتم به. فما يمتلكه بين فخذيه هو امل هَفِينا المتبقي للنجاة. عدا ذلك.. "، ونهضت بهدوء. ثم قالت: ".. فإن مصيرنا هو الانقراض لا محالة!"..

لم تغير سيمينا زوجة القاضي الاكبر جلستها. وقالت بهدوء، "وهل لدينا حل اخر؟. لو كنا نستطيع الابحار ونعرف استخدام البوصلات والخرائط

لذهبنا بسفينة نبنيها الى اية ارض اخرى عدا ارض الاسكيين. وتزوجنا منهم وجلبنا بعضهم الى هنا. لكن اي معرفة لأي امة بوضعنا الحالي سيمكن اولئك من غزونا. فهَفِينا تملك الكثير لتغزى لأجله. انني اتفق مع السيدة مارلين. يجب ان يجد ذلك الساقي. نسيتُ اسمه. نفسه ملكاً متوجاً هنا. مع عدد من مستشاراته اللواتي لن يكن من غير من يجلسن الان في هذا المكان. فمن الممكن ان يكون الذكر في وسط النسوة حاكما. لكن ليس بعقلية الساقي وحدها سيحكم". هزت زوجة مسؤول الحرب راسها. ورفعت زوجة مدير الميناء يدها. ثم ما لبثت جميع النسوة السبعة حتى اعلن موافقتهن جميعا على راي السيدة مارلين. يد واحدة لم تشهر موافقتها على ما ذكر. كانت تلك يد ايفا. النمرة الشبقة التي لم ترد ان يكون راموس ملكا للجميع. شعرت حينها بأنها ارتكبت خطأً عندما ابلغت السيدة مارلين بما راته من عبور دوراثا لسياج منزله. لكنها في الوقت نفسه. تدرك ان هَفِينا لا يمكن ان تدوم من دون ذرية ينجبها راموس بكثرةٍ لا تستطيع امرأة واحدة تحملها. تحرسها مستقبلا وتدير شؤونها..

"ايفا؟". قالت السيدة مارلين. "لم نرى لك يدا ترفع بالموافقة!". على استحياء وتردد ونصف غضب. رفعت ايفا يدها. لكنها كانت تخطط في خلدها بخطة لتكون زوجة راموس الشرعية. حيث تتوج هي على هَفِينا زوجة له. فيما يمضي هو بواجب المضاجعة مع غيرها حين يشاء. ويشاء مستقبل الجزيرة.

في ذلك الوقت. كانت دوراثا تخرج من منزل راموس للمرة الثانية. بعد افطار حميمي معه. اذ افرغ معها نيرانه المتكدسة منذ الليلة الماضية. مضت الى كوخها بعد قبلة شبيهة بقبلة البارحة.

الفصل 9

كانت قد مرت ساعة واحدة على الاجتماع في منزل السيدة مارلين. قررت فيه النسوة الدعوة لطلب راموس للتحاور معه بالشأن الذي ناقشنه. ولم يكن امام السيدات الا ارسال اصغرهن عمرا اليه. ايفا. التي حاولت الاسراع بطريقها نحوه. لكن السيدة مارلين امسكتها عند الباب لتخبرها بان عليها ان تخبر راموس بالمجيء فحسب. وألّا تستغل الذهاب الى هناك لمضاجعته فتؤخره عن الاجتماع. فسيدات هفينا ومستقبلها اهم من راحتها الجنسية. اومأت ايفا على مضض وخرجت الى منزل راموس. حيث لا يبعد سوى عشر دقائق من هنا. راحت تخطوها وهي تحاول المرور بين اشجار على جانب الطريق الترابي العريض. فهناك فرصة اكبر لإخراج مرآتها الصغيرة والنظر الى كحل عينيها قبل بلوغ منزل الشاب. رغم ان احدى قدميها اصيبت بخدش من احدى النباتات الخشنة. لكنها لم تهتم لذلك. واستمرت ترتب نفسها وهي تسير الى منزله. فلا بد من ان تكون ببهرجتها الكاملة وهي تلتقي رجل الجزيرة الاوحد.

كان راموس ممددا على فراشه وقد ثنى يديه خلف راسه. لقد انتهى قبل قليل من مضاجعة دوراثا. شعر بما تتركه العلاقة الجنسية فور انتهائها من كراهية وملل. ورغبة بان لا تعاد الكرة من جديد مع الشخص ذاته. لكن ذلك الشعور ما ان يمر الوقت بساعاته القليلة او حتى دقائقه البسيطة احيانا حتى يزول. ويعود الشبق للحب مع ذات الشخص كأمرٍ لا يحتمل. لم يجرب راموس كل هذا قبل العاصفة. لم يجرب ضربات القلب السريعة عند تقبيل امرأة. ولا تلمس ثدييها بحلمتيهما المنتصبتين. لم يجرب انفاس امرأة حرى ولا لمسات باطن يدي اخرى على صدره المشعر. كيف مرت ثلاثة وثلاثون سنة لم يذق فيها راموس الحب. ولم يتلذذ بالنساء.

استعـاد كل شعور مر به خلال ايامه القليلـة الماضية، استعاد الشعور بلحظـات الايلاج الاولى، وسخونة انفاسه وهو يكون جزءا من جسد امرأة كانت جزءا من جسـده، ثم هز راسه مبتسما، وهو يتذكر شعور النشوة القصوى في لحظة انفجار براكينه الغاضبة، عندما يتوقف العالم في تلك اللحظـة، وتنشد كل اعصاب جسمه وتنطلـق اهاته مالئة رئتيه بهواء الدنيا، لمـاذا كل تلك الحدود لنصل الى هذه النشـوة؟ حدود الناس وحدود الرغبـة في المضاجعة، لكنه دفع عن راسه كل تلك الافكار، عندما سمع باب بيته الداخلي يفتح بهدوء، وقد تسلل شعاع شمس الى داخل المكان متقاطعا مع ظل احدهم، قليلا، وبدت عينا ايفا تطلان من وراء الباب، كان الكحل عليهما يبـدو كأفقين يضمان وسطهمـا كوكبين اسودين، رفع راموس راسه ينظـر نحوها، وامتدت قدم خلبت لبه مـن وراء الباب، وهي تخطو الى الداخل.

اغلقـت ايفـا الباب بهـدوء وبخطـوات بدت كأنهـا تمشي علـى الغيم لهدوئها، وما ان انطبق باب الكوخ، حتى انقضت عليه، لم تنطق بكلمة واحـدة، بل افترست عنقه لثما وتقبيلا وهو لايزال على فراشه، احتضنته بـين ذراعيها كأم تحتضن ابنها، كانت تتصـرف بعشق، فيما راح هو يلف ذراعيـه حولها وقـد شعر بان ما انطفـأ منه بعد الانتهاء مـن دوراثا عاد ليشتعل من جديد، رفعت ايفا ثوبها وتمددت على صدره وهي تلثم خديه ووجهه، وبينما هي كذلـك، بدأت تتمتم بكلمات ارسلتها مارلين الى هنا لتبلغهـا اليـه، "حبيبـي... يجب ان .. تحضـر .. الان .. الى منـزل السيدة .. مارلـين..". كانت تلك الكلمـات تتقاطع مع قبلاتهـا الشبقة وشفاهها الملتهبـة حرارة، زادت تلك الكلمات رغبة راموس بمضاجعتها، امسك بها من وجهها وابعدها عن وجهه، ونظر اليها فيما كانت خصلة من شعرها الاسود تتـدلى الى خده، "ماذا؟ السيدة مارلين زوجة مسؤول التموين؟...."،

ابعـــدت ايفا يديه وعادت تقبل وجهه "نعم يا حبيبـــي ...نعم هي.."، ابعد وجههـــا من جديـــد وقال لها: "ماذا؟ لمـــاذا ماذا تريد؟"، تغـــيرت نظراتها الى اكـــثر اخرى هدوءا وارتخاءا، "ما بك يا حبيبـــي، انها تريدك لأمر هام"، ارخى راموســـ اصابعه وهو يحاول طرح السؤال الاهم من بين الاسئلة في راسه، لكـــن ايفا هاجمت ذقنـــه بقبلات اخرى، "ايفا!"، صرخ بهـــا، توقفت الفتاة عن اطلاق رشقـــات قبلاتها ونظرت اليه، "اسف لكن!.. ماذا تريد؟"، ارتخى جسمهـــا على صدره وراحت تداعب ذقنه بإصبعها، "لا اعلم، لعلها تريد تنصيبك ملكا علـــى هَفِينا!"، ارجع راموس راســـه على وسادته، نظر الى سقف الكوخ، ثم انفجر ضحكا، "ملكا؟ الساقي يُطلب لان يكون ملكا!"، مدت ايفا اصبعها الى شفاهه وقالت: "ما بك؟ انت رجل الجزيرة الوحيد يا راموســـ، ستذهب من هنا لتكون ملكا ان رضيت ببعض التعليمات التي ستمليها عليك زوجـــات رجال حكومة الجزيرة السابقين، قل نعم لبعض التعليمات، وستكون ملكنا الجديد!"، نظر راموس الى عينيها، كانت تنظر اليه فيما جسمها يحتـــك بجسمه، "ستصبح ملكا، وتتركني وحيدة يا راموســـ، صحيح؟"، "هل تعتقدين بـــان احداهن قد تكون اكثر شبقا منك معـــي؟"، قال لها وهو ينظـــر الى عينيها اللتين بدتا كعيني قطة، جلست علـــى خصره ورمت بفستانهـــا، وراحت تذيقه ما لن يدعـــه يفكر بغيرها، سواء اكان ملكا او لم يكن..

الفصل 10

كان الصمت يخيم داخل منزل السيدة مارلين، عندما كان راموس يحك اظافره ببعضها بانتظار بدء الحديث، بدت عيون النسوة تتقلب نحوه بينما كن يتهامسن عنه، وبقيت ايفا واقفة بانتظار الحوار، نظرت السيدة مارلين إليها، وحولت نظرها عن رقبة راموس التي بدت محمرة من بضع عضات يبدو ان ايفا قامت هي من غرستها هناك، الهرة الماكرة التي تستغل كل لحظة مع الساقي حتى في احلك الظروف، "حسنا راموس.."، قطع صوت السيدة مارلين هدوء الجلسة كسكين ساخنة تقطع الزبدة، "تعلم بانك الرجل الوحيد المتبقي على ظهر هَفِينا، بعد ان رحل احباؤنا الى عالم اخر، وبقيت انت كثقب في جدار نرى النور من خلاله، لقد اجتمعتُ مع السيدات زوجات المسؤولين السابقين في المدينة، وقررنا امرا ما بخصوصك"، بلع راموس ريقه بانتظار خروج تلك الكلمات التي ستنصبه ملكا على الجزيرة، كما سربت له ايفا قبل قليل، "وكان قرارنا.."، اكملت السيدة مارلين، "ان نعينك ملكا على هَفِينا .."، كاد راموس ينزلق من حافة الاريكة لما تأكد له صحة ما أخبرته به ايفا، واكملت: "لكن بصلاحياتٍ تحددها السيدات في هذه الغرفة، ماذا قلت؟ او بالأحرى، متى ستباشر عملك الجديد؟"..

شعر راموس بان السيدة مارلين اغلقت عليه اي طريق للنقاش او الرفض، بتردد بالغ، اومأ برأسه وهو ينظر اليها، والى ايفا التي وقفت الى جانب اريكته وهي تحبس انفاسها، نظرت السيدة مارلين الى السيدات حولها، ثم قالت "يبدو ان ملكنا الجديد بحاجة الى معرفة كبيرة في الحكم"، وفجأة، تعالت اصوات النسوة بالضحك، فراموس لم يسأل عن كيفية الحكم والصلاحيات واساسيات ادارة الجزيرة، بل وثب كقطٍ الى حافة جدار

لا يعلم ماذا وراءه. تواصل الضحك في الغرفة الفارهة. في حين كان هو يطأطئ عينيه الى ارضية الغرفة الخشبية. هدأت الاصوات من حوله. ونهضت السيدة مارلين وافقةً. وعندما فعلت. عادت الغرفة الى هدوئها السابق. "راموس.."، قالت. "عليك ان تفهم ان صلاحياتك لن تمنح لك الا بسماح هذا المجلس فقط. انت لن تفعل امرا من دون الرجوع الى هذه النسوة وتستفيد من خبراتهن. كل واحدة هنا اكتسبت من الخبرة ما يكفي لان تساعد على حكم الجزيرة بتقديم الاستشارة المطلوبة. وتلك خبرة اكتسبنها اولئك النسوة من ازواج كانوا اركان الحكم. ستدير الجزيرة كملك بسلطة مركزية فحسب. اما كيف ومتى ولماذا. فعليك ان تستشيرنا اولا قبل اية خطوة.."..

تقاطع صوتٌ اخر في الجلسة. فقد تحدثت زوجة وزير الحرب بصوت بدا افخم من صوت السيدة مارلين. قالت: "واجبك الآخر سيكون التكاثر. سنمنحك من النسوة ما تختار. عليك ان تقوم بمضاجعتهن ليحملن وينجبن. نريد ان ننجب الذكور من جديد. وان تكون لدينا بعد عشرة سنوات من الان مجاميع من الصبية يركضون على مروج هَفِينا بسعادة. وبعد عشرين عاما. سيكونون محاربين وتجّارا وعاملين وسقاة. فلاحين وحدادين ونجارين. يجب ان تزرع بذورك على طول هَفِينا وعرضها يا راموس. انت الرجل الوحيد هنا. ونحن نقوم بتقديم الصلاحيات اليك".

صمت راموس. وتخيل ان هَفِينا التي تقبع وسط البحر ستكون تحت حكمه. على الرغم من بعض القيود التي تضعها النسوة الان. تحت حكمه بعيون مياهها التي على رؤوس التلال. بمروجها الخضر الممتدة على طولها وعرضها. بمينائها الكبير الذي يستقبل الاسكيين كل شهر. بزرعها وثمارها وسمائها وترابها. بنسائها اللاتي يوصفن بانهن اجمل نساء الارض. وببركانها "هيلا" الذي يتكدس على اطرافه النحاس

المصهور، كمورد هام تقايض به هَفِينا الاسكيين مقابل ما نحتاج إليه.
"موافق"، قال راموس اولى كلماته في مجلس النسوة هذا، "حسنا"، قالت السيدة مارلين، " من الان سيتم اعدادك وتعميدك للعمل كملك للجزيرة، عليك ان تنتقل الى قصر برادوزا، وهو يطل على سواحل هَفِينا الشرقية، كأبعد نقطة عن هيلا الذي يقع في اقصى الغرب، حيث سيكون مقرك للملك، سنتواجد قريبا منك دائما لإرشادك الى الصواب كمستشارات، لن نحكم قبل اسبوعٍ من التعميد وفق طقوس هفينا، يمنع التحدث بما جرى هنا راموس".
هز الساقي رأسه، ونهض ليعود الى كوخه استعدادا للانتقال الى مقره الجديد، لكن زوجة وزير الحرب قالت: "لا مزيد من النساء حتى الاستقرار في مقرك راموس، لا نريد مشاكل بين النسوة هنا"، تنحنحت ايفا مجبرة لما سمعت، وحصلت على نظرة شزرٍ من السيدة مارلين.
تعثر راموس بحافة السجادة محاولا الخروج من هذه الغرفة التي شعر بثقل هوائها على رئتيه، تنابست النسوة بضحكات خافتة لتعثره، خرج من الباب وهو يخطو الى الخارج، ولحقت به ايفا مسرعة، وبعد خطوات تتبعته بها، "كنت ممتازا ايها الملك"، قالت له بابتسامة ماكرة، التفت نحوها ودفع بشعره الى الوراء مكملا طريقه، "انا جادة فيما اقول، لم يكن عليك ان تعترض على اي من الامور التي طرحنها امامك، عندما تتمكن من الحكم سيكون استبدال اولئك العجائز سهلا، اما الان وقبل ذلك فانت مجرد ساقٍ يضيع بفخامة عرش حاكم، تقبل الامر اولا!"، توقفت خطوات راموس في ذلك الممر الترابي بين الحشائش والنباتات، كان صامتا للغاية، مرت ثوانٍ، والتفت نحوها صارخا، " انهن يهنني!"، بلع ريقه وبانت عيناه حمراوين، "يهنني بأوامرهن! كل ما عرفته بهذه الحياة كان خدمة السكان وحمل المياه على كتفي ووضعه امام ابوابهن وابواب غيرهن، ساقٍ وخادم

فحسب. والان عندما اتحول الى ملك، اكون ملكا وخادما ايضا؟! يملين عليَّ ما افعل وما لا افعل ويستخدمنني كقضيب يزرع بذوره في هذه وتلك!، ثم يرمينني عندما اكون قد هرمت ويستخدمن اولادي لإرضائهن وبناتهن في الفراش، في حين سأكون وقتذاك اسعل حتى الموت على فراشي؟! اي حكم هذا يا ايفا اي حكم؟!"..

"اشششش!"، قالت ايفا وهي تضع راسه بين ذراعيها خلف شجرة فناء منزل السيدة مارلين، "اصمت راموس، انت لا تفقه شيئا يا عزيزي، عندما تتعلم الحكم ومفاصله بعقلك هذا، ستعرف كيف يمكنك ان تعيش بمعزل عنهن، عليك ان تتكاثر من وجهة نظر اخرى، وجهة النظر التي تقول بان عليك ان تجعل كل رجال الجزيرة من نسلك، نسلك وحدك، لتبقى دماءك هنا الى الابد، افهم هذا راموس"، كان راموس يضع راسه على كتفها، فيما سالت عيناه دمعا على ردائها، وبدا كطفل بنشقاته المتقطعة وبكائه، شعر بالراحة وهو يبكي على كتف ايفا، لكن صوتا ما خرم كل شيء، صوت السيدة مارلين وهي تصرخ: "ايفا! تعالي الى هنا، اتركيه يذهب!"..

الفصل 11

بدا كل شيءٍ داخل كوخه الخشبي العتيق يتحدث اليه، هو الجالس محتبيا في احدى اركان ذلك المكان ، كانت الساعة الخشبية كأنها تستعد للرحيل الى مكان اخر اجمل واكبر، فيما كانت المرآة كأنها لا تريد المغادرة ومفارقة الجدار الذي عانقته طويلا، احنى رأسه وهو يفكر في ايامه المقبلة، قد تكون تلك الايام معبأةً بنصائح عجائز مجلس الشورى المزعجات، او انها ستكون -كما قالت ايفا- ايام قليلة من الاستماع الى مجلس الارامل ذاك، وحين يتسلم مقاليد العرش، سيتحول الى آمرٍ ناهٍ اوحد على ظهر هَفِينا، نظر الى نفسه وفكر بطريقة اخرى، فهو سيستمتع بما يشاء من الجنس، ما يشاء من النساء، بعد ان يضمن لقطته ايفا اولويةً على الاخريات، ماذا عن دوراثا؟ لا بأس، بإمكانه الامر والنهي بكل شيء قريبا، على الاقل، ليخض التجربة، ويعش حياة حاكم على الجزيرة، بعد ان عاش جيلا من حياته ساقيا يحمل دلاء المياه.

كانت الظهيرة تلقي بشعاعٍ من شمسها على ثقبٍ في سقف كوخه، ليسيل ذلك الشعاع ذهبيا نحو ارضية الكوخ، حاملا رقصات حبات الغبار الملتوية على نفسها داخله، بدا الغبار فيه ككونٍ من الاف الذرات الحائرة، اتجاهاتٌ شتى، ورغبات عديدة ابدتها تلك الاشياء الضئيلة في حركتها المتشابكة، لن يضر ان اتجهت احداهن شمالا او يمينا، فشعاع الشمس باق، حتى افوله مغرب هذا النهار، كذلك هَفِينا، ستبقى بارضها وزرعها ومائها هناك حتى زوال المحيط او ما عليه، لكن الناس عليها – وكلهم من النساء- كل في شأن، برغبات واتجاهات عديدة، وشأنه اليوم كفرد بينهن ان يحدد رغبته فيهن..

ان يحزم امره نحو قصر الحكم، ملكا على الجزيرة.

داخل منزل السيدة مارلين، ارتشفت النسوة بعض العصائر المستقاة من ثمار هفينا. قالت زوجة وزير الحرب: "ارجو ان لا نكون انا والسيدة مارلين قد اخذنا بعضا من مساحة رايكم حينما تحدثنا الى ملكنا الجديد سيداتي". ردت عليها زوجة مسؤول التنظيم الداخلي ، "بالعكس سيدتي، هذا ما يجب ان يحدث برأيي، اشهر قليلة ويتعلم الشاب طريقة ادارة الامور على المستوى الشخصي، اما على مستوى حكم هَفِينا فهو سيبقى بحاجة لنا الى نهايته او نهايتنا!"، ضحكت النسوة، فيما ردت السيدة مارلين قائلة: "الامر الوحيد الذي لا نختلف عليه هو ان علينا جميعا الحفاظ على بيضتيه من اي ضرر يصبن به اثناء جماع اي من نسوة الجزيرة"، تعالت اصوات الضحك، فيما انزعجت ايفا اكثر لما يقال، وشعرت كأن بركان هيلا نفسه بدأ يتصاعد في رأسها. لم تحسب السيدة مارلين حسابها في اي من الاحاديث التي جرت اليوم، فيما كان يجب فعل ذلك كونها هي التي ابلغتها عن علاقات راموس التي بدأت تفوح رائحتها الى السطح، شعرت بعظم ذنبها حين اخبرت السيدة مارلين بما حدث، فبدلا من ان تستحوذ بمساعدتها على راموس بشكل كلي، اصبح راموس ملكا عاما لكل نساء هَفِينا، او العكس، اصبحت النسوة ملكا له وحده، اذ صارت حظوظها في الاقتران به تتضاءل مع كل حديث تثيره النسوة في بيت السيدة مارلين عن مزاوجة النساء براموس. "سيداتي": قالت ايفا، وقد حل صمت ثاقب، "اعتقد ان راموس يجب ان تكون له زوجة واحدة ثابتة، كملكة على هَفِينا، وام الوريث الشرعي لها، اما بقية النسوة فهن مفاقسه التي يجب ان يدوم انتاجها طالما كان الساقي قادرا على المضاجعة"، تبادلت النسوة النظرات فيما بينهن، فلم تطرأ تلك الفكرة على عقولهن، بل ان جل اهتمامهن كان قد انصب على مكاثرة الذكور باستخدام راموس، لا التفكير بالمستقبل، كإيجاد حل من الان لما ستكون عليه الايام.

"وماهو رأيك يا ايفـا؟"، قالت السيدة مارلين وهي تعرف بما تخبئه الفتاة، فهي التي شكت لها عبور دوراثـا الى كوخه ومضاجعتها له، "سيدتي"، ردت ايفـا "ارى ان نخيره بمن يجب ان تكون زوجتـه"، "مستحيل!"، صاحت احـدى النسوة، "اننـا نوسع المشاكل هكذا، يجـب ان يتسلم الحكم اولا ثـم نستغل هذا في السيطرة على النسـاء، جميعهن سيحاولن ان يكن اكثر انضباطا وهن يفكـرن في امكانية الارتباط به، لا يجب مناقشة هذا الامر الان سيداتـي"، "اتفق جدا!"، قالت السيدة مارلين، ورفعت السيدات الاخريـات اياديهن على راي واحد، يجب تنصيـب راموس اولا، ثم بعد ذلك التفكير بزوجة شرعية له، وطأطأت ايفا راسها.

حـل المساء، وجاء وقت التحاق الساقي بمقر الحكم الجديد في طرف الجزيرة الشرقـي، حزم راموس امتعته البسيطة، مرآة صغيرة، مشط من خشب، بضع قطع من الملابس، وساعة الجدار الخشبية، وقف في باحة الكوخ ملقيا نظـراتٍ اخيرة على داره، واتجه الى البـاب الخارجي تاركا المكان برمته، تباطأ في خطواتـه، لعل دوراثا ستشعر بمغادرته وتأتي لتوديعه او قول كلمةٍ ما، لكـن لم يكن ذلك ليحـدث، فهي لا تعلم بوجهته الجديـدة او بما جرى في منـزل السيـدة مارلين، على اية حـال، يجب ان يكون هنـاك الان، وان يبدأ التعميـد لمدة اسبـوعٍ كطقس قبل الحكم، ثم ينطلـق ملكا باستشارة مجلس الاستشارة النسوي، وشيئا فشيئا، ملكا مطلقا على هَفِينا.

سـار عن كوخه العتيـق الى مقر سكنه الملحق بمقـر الحكم، كان يخطو متئـداً نحو الطرف الشرقي من الجزيرة، حيث لا يبعد المقر عن كوخه هذا بعيدا، لم يكن يخرم ذلـك المساء سوى صوت خطواته وهي تحشو الرمل بقدميه، صوت واخر، صوت واخـر، صوت واخرَين، اخرَين واربع، حتى شعر بـان احدا ما يسير خلفه، لم يشأ الالتفـات، بل بقي منصتا الى الخطوات الاضافية التي تسير وراءه، يجب ألّا يبدو الملك متعبا هكذا"، قال الصوت،

"لم يصبح ملكا حتى الان"، قال وهو يجيب على ايفا التي ميز صوتها فورا، "لم يعد بينك وبين المقر سوى خطوات، يجب ألّا يشاهدك احد وانت تدخل اليه بهذه الهيئة راموس"، توقفت خطواته فورا، ووقفت خطواتها، قالت له: "لن اتمكن من الدخول الى هناك معك، ستدخل وحدك!"، التفت اليها، ووضع الساعة الخشبية وباقي اغراضه ارضا، وجذبها اليه من رقبتها بشدة، وامتص رحيق فمها بشفتين مجنونتين.

الفصل 12

كان قنديل يتقد شمعا ونورا يتدلى من سقف قاعة هائلة الارتفاع قياسا بعيني راموس، وكانت هناك حروف عديدة غريبة قد نقشت على قعر قبة عظيمة تشكل سقف القاعة، حروف لم يفهمها، غامقة واقل غمقا، تلألأ زجاج القنديل الهائل كسربِ ملائكةٍ عَلِقت في سقف القاعة، كان الصوت يضيع في مساحة المكان وارتفاعه، حتى ليشعر المرء ان رئتيه لا تحتويان قدرا كافيا من الهواء، على جانبي القاعة الدائرية، تتراصف اعمدة رخام بأقواسٍ ذات زخارف فائقة الدقة، تصل من الجانبين الى المكان الاعلى في القاعة، عرش الملك، حيث تقابل العرش بوابة القاعة الهائلة من الجانب الاخر، البوابة الحاملة لنقوش يبدو ان وضعها قد استغرق عقدا من الزمن، صنعت من خشب البلوط الممزوج بمذاب الذهب، وقبضة من الزجاج بطرفين من الذهب نفسه، وقبضة طرقٍ من الفضة الخالصة، بوابة قاعة خرافية تنتصب على ارضية من المرمر العاكس لكل شيء، حتى لآلئ القنديل الكبير في الاعلى.

شعر راموس بالضآلة وهو هناك، كل شيء لا يشابه الماضي، لم تر عيناه من قبل ما تريانه الان، ولم تسمع اذنه مثل هذا الهدوء الممزوج بزقزقة عصافير الباحة الخارجية للقاعة، ولم يخطر على باله من قبل ان مكانا كهذا من الممكن ان يكون حقيقيا وقابلا للمس، رونقٌ في كل شيء، وعظمة وبهاء لم يرهما في خياله من قبل، نافورة مياه يترقرق ماؤها كنهر من وراء العرش الى جانبيه، ونخيل داخل القاعة لم يفهم راموس حتى كيف وصل الى هنا، وستائر شفافة خفيفة تتدلى من الشرفات الشاهقة فوق اعمدة الرخام المزخرفة، لتبعث في الناظر طمأنينةً لا تنسى، وبرودة روحٍ لا تقاوم.

امـا العرش، فمخمله الاحمـر القاتم ينساب من متكئـه الى مقعده، بين قبضتـي يديـن من الذهـب المزخرف على هيئـة الطواويس، حين يضع الجالس يديه على رأسيهما، واللذين يوجـد شبيهان حيان من ذكر وانثى لهمـا على الارض، يروحان ويجيئان على ارضية القاعة امام العرش، وهما اليوم يبدوان تائهين وحيدين، بانتظار ملك جديد.

شعر راموس بان تلك البقعة الفائقة الروعـة ليست من صنع بشر، ولا حتـى انها على ارض هَفِينا، كانت كقصرٍ على الغيـم، قصر على قمة احـلام المرء، لا قش هنا، ولا مـرآة شاحبة، ولا صوت دجاجاتٍ تتشاجر على الديـك الوحيد الذي بقي عقب العاصفة، طواويس هادئة ومياه مترقرقة، وستائر تتمايل مع هبوب ريح البحر الشرقية على مبنى القاعة الخلابة.. انه قصر برادوزا الهائل ..

"اعجبتـك؟"، جاء صوتٌ من الخلـف متناثرا بين اصوات وقـع اقدام، هبط راموس واضعا اغراضه وساعته الخشبية على الارضية اللامعة، والتفت الى تلـك المرأة المشوقة ذات التعابير الجادة خلفه، "بلى، تبدو مذهلة"، قال للسيـدة مارلين التي يبدو انها كانت بانتظـاره بفستانها الغامق ووجهها الذي لا زال يدل على الحداد، "اسمع راموس"، قالت وهي تخطو في المساحة الهائلة لتلك القاعة وقد رافق صوت حذائها صوت الماء وصداه، "انت اليوم تقـف بنا بين خياريـن لا ثالث لهما، فأما ان تجلس علـى هذا العرش وتقود الجزيرة الى خلاصها واعادة ذريتهاوحمايتها، وتعيد تلك الجنة التي طمست العاصفة بالحداد الذي خلفته جمالها ونقاء ارواح اهلها، وعندئذ ستبقى في قصـرك هذا الذي تـرى، وسنبقى علـى ظهر الجزيرة امنـين مطمئنين، لانسمع فيها لغو الامم الاخرى ومشاكلها وآثامها التي تقترف"..

توقفت خطواتها والتفتت اليه، وبدأت تقترب منه مخفضة صوتها: "وأما اذا ما فشلت في ذلك راموس، فلن يطول وجودك على هذا العرش، ستشعر

بأمرنـا أمة ما، وسيأتـون الينا ها هنا، وسيرمون بنا وبك الى اعماق البركان هيلا، حيث الجحيم الابدي، اتعلم ماذا هناك في هيلا راموس.."..

رفعت ذقنها وبدت عيناها كعدستي تصوير تغيران دورانهما، "هيلا بركان اللا موت! المرءُ هنـاك لا يفنى ابدا، سيبقى صراخـه يعول بالمحيط طولا وعرضا، يذوب الفرد فيه قبل ان يصل الى سوائله المنصهرة لشدة حرارته، يتسامـى في امتاره الاولى وهو يهوي بداخله، وتأبـى قوة اللعنة التي فيه الا ان تعيـد تشكيله ليكمل سقوطه الى نهـره الناري، وهكذا، يتسامى وينصهـر، ويخلق ويموت، حتى يغرق في نهـر نحاسه السائل، حين لا ينفع صراخ ولا شكوى، وتعيد اللعنة خلقه من جديد، وهكذا الى الابد ...!"

"كيـف عرفت كل هذا سيـدة مارلين؟"، قال راموس وهـو يحدق بعينيها اللتـين رمشتا لأول مرة منـذ دقائق، "عرفته ابا عن جدٍ واما عن جدة، وهم تناقلـوا ذلك عن اولئك الهفنيين الذين رأوا الالهة فأرتهم ما بهيلا، قالت لهم حينها وذلك منذ زمن طويل:

"في هـوّةٍ بهيلا قعـر ناري اكبر من هَفِينا كلها، فبعد ان يحرق المرء ويبعث مـن جديد، تأخذه ريح غريبـة مبتلعةً اياه من نهـر النحاس المنصهر الى اعلـى حيث قلب القعـر، هناك الحرارة اخـف، الا انه حين يقـع في قلبها، ستطحن اشـلاؤه وعظامه حتى تستحيل دقيقـا، لو نفخت عليه لطار وتبعـثر، سيستحيل جلده الى زيت يسيل علـى جوانب القعر السحيقة ليقطر في هوة هائلة، حيث يرتطم اخيرا كقطرة ماء ثقيلة في نهر النحاس وهو يسير بين جرفين من صخر صنعه دقيق العظام، هيلا مكانٌ مرعب يا راموس، لا مفر منه الى حياة او موت...!"

"دقيـق من عظام؟ عظام من تلك التي سبقتنـا الى هناك؟"، قال راموس، غضبـت مارلين وجحظـت عيناها: "اتكـذب اجدادك يا راموس؟! اولئك الذيـن اخبرتهم الالهة وارتهم كل شيءٍ بأعينهم! كيف لهَفِينا ان توجد

لــولا ان يكــون فيها مكان لثــواب واخر لعقاب؟ سيفســد كل شيء لولا ان الناس يخشــون ثوران هيــلا ذات يوم فتحيــل الجزيرة الى رمــاد وتماثيل مــن اجسادنــا!. ثوابنا بحصادنا السنــوي وخصوبة ارضنــا ان نحن سرنا بالفضيلة والاحسان. واما عقابنا ان نحن اقدمنا على الرذيلة فسيكون بثــوران هيلا التي ثارت ذات عام قبل قــرون وطحنت بنارها ورحاها من كان علــى الجزيرة. فذهبت عظامهــم لتكون صخر نهرهــا النحاسي الاحمر الــذي سألتَ عنه. ثــم جئنا نحن لنعيش عليهــا ونتكاثر ونصبح شعب هَفِينــا الجميل...". ثم تغــير صوتها مختنقا بعبرةٍ ضيقــةٍ للغاية. "حتى حلت تلك العاصفة اللعينة!"...

"أتعتقدين انها عقوبــة؟". قال. فردت: "بل اختبار لنا جميعا!. لذا. اخشى ان تكون علاقاتك غير الشرعية مآلا الى هيلا وثورته. دع زيجاتك امام اعيننا راموس. فذلك اسلم!".

"وحــدي؟ احتمل وزر الجزيرة بأكملها؟". "لفرادتك!". اجابت."لأنك ستتحمل الامانة بأكملهــا. فانت الان الرجل الاول على هــذه الارض. والذي ستعيد اعمــار الجزيــرة بكاملهــا أبناء لــك ستنجبهم منــا نحن الامهــات. هل ستتحمــل تلــك الامانة راموس؟". كان الساقــي يشعــر بساقيه وهما ترتعشــان. الا انه لم يطل التفكير واجاب: "بلى سيدة مارلين". "انتهينا!". اجابت. "ستكون انت من يعمرها. عليك ان تدرك ان كل شيء يتوقف الان عليــك. الا انك لــن تبلغ ذلك العرش هناك. والــذي كان يشغله من قبلك متناوبون علــى حكم الجزيرة حتى مات اخرهم ليلة العاصفة. قبل ان تمر باختبــار صغير. اختبــار تقليدي. على الرغم مــن ان لا غيرك ليشغل ذلك الكرسي. الا اننا يجب ان نجتمع –نحن النسوة السبعة من زوجات الوزراء السابقــين الاهم– لنعلن موافقتنا على تنصيبك. هذا لن يمر قبل سبعة ايام من التعميد. ثم سترتقي لتلك الدرجات السبعة المؤدية الى العرش".

نظـر راموس الى مكان العرش من جديـد، كان قـد رأى ارتفاعه عن باقي ارضية القاعة العظيمـة، الا انه لم يعدّ الدرجات، تتبعها بعينيه سريعا الان، كُـنَّ سبعة، تضيق مساحة كل واحدة عـن الاخرى الى الاعلى حتى تبلغ الاخيرة الارضية التي يجلس عليها ذلك الكرسي الاشبه بالعرش.

"مـاذا تعلمنني؟"، قال ملتفتـا اليها، اجابت: "سؤالـك وحده اجاب على نفسه! فانت تجهل ما يجب ان تعلم، ستقاومنا قليلا، فانت عدو ما تجهل، ثـم انك ستتعلم رغبـة ورهبة، كي ترتقـي الى هناك، لأنـك ان أخفقت، ستتصرف بعيـدا عن تقاليد هذه الجزيرة، وستودي بنـا الى الهلاك، سواء اكان هلاكنا على يد الغرباء، او بثوران هيلا".

"ايـن سأضـع هـذه الساعـة برايك؟"، قـال متجاهـلا ما قالـت، نظرت السيـدة مارلـين الى الساعة الخشبيـة الغريبة التصميـم على الارض، واجابـت: "حيثما تشاء، رغم انها لن تكون الا رمزا يذكرك بكم من الوقت ستقضيـه في رضى الالهة، وكـم في اغضابها، وسيبقى متاعك الوحيد هو ايمانك بقوة الالهة السبعة، وبالعدل في الحكم".

تجاهـل راموس ما قالـت من جديد، ومضى باتجاه الدرجـات السبعة، كي يضـع الساعة على اي جدار قريـب على العرش، "قف!"، قالت له السيدة مارلـين، "لن ترتقِ الى هناك قبل اختبار اليوم السابع، حتى لوضع ساعتك العتيقـة هـذه!، نم اليـوم في غرفةٍ ملحقة صغـيرة بجوار هـذه القاعة، وسيبـدأ تعميدك على يد النسـاء السبعة من الغد، وبعدها، سنضعك على طريق التتويج!".

"طريق التتويج؟"، قال، "بلـى!"، اجابت السيدة مارلين وهي توليه ظهرها خارجة من القاعة الكبيرة، "ستمر على تلك الدرجات لترتقي الى العرش!"..

وتركـت القاعة الكبيرة باتجاه البـاب الهائل، فيما نظر راموس الى ساعته الخشبية على الارض، والتي كانت تشير الى السابعة.

الفصل 13

حان اليوم الاول للتعميد. اجتمعت النسوة السبعة من زوجات رجال مجلس الحكم السابق في هَفِينا لتعليم راموس اولى درجات الحكم. مشاهدة حروف قعر قبة القاعة. كانت السيدات قد اصطففن الى جانب بعض على شكل دائري تحت مركز القبة في الاعلى تماما. فيما تمدد راموس على الارض وسطهن وهو ينظر الى الارتفاع المهول للقبة التي بدت تعانق السماء من فوقه.

كان الساقي شاخصا ببصره الى تلك القبة التي اشارت اليها احدى السيدات. لم يكن يعرف اسماء اولئك النسوة عدا اسم السيدة مارلين. عن طريق ايفا التي كانت تنقل اليه كلامها. اشارت تلك السيدة التي بدت بدينة وقصيرة الى تلك القبة. قالت : "قبل ان تتعلم اي شيء. عليك ان تتعلم لغة الحكمة. ولغة الحكمة آتية من الالهة. وحيث لا مكان يليق بالآلهة الا العلو والسمو. فقد كتبت حروف اسماء الالهة هناك. في قعر هذه القبة العظيمة. وهي تشمل كل حروف الكلام. حيث يجب عليك ان تتعلم النظر اليها. وان تستخرج من بينها كلمة قد تقودك الى مسارك الصحيح وقرارك الصائب. فتنظر الى تلك الحروف لأول مرة عندما تكون على مفترق طرقٍ بقراراتك. وحين تنظر. فإن اولى الحروف التي ستتشكل امامك لتكوِّن مفردةً ما عليها. هي الحروف التي يجب ان تؤمن بها. انظر الى القبة وكون كلمة واحدة. قادرة على ان تكون مفتاحا يقودك الى قرارك"..

اخفضت السيدة يدها. ورفعت التي بجانبها سبابتها لتكمل: "ان انت لم تُجِد فهم حروف القبة العليا. ستضيع في حكمك وملكتك كما يضيع الماء بين حبات الرمل. ستهوي بنفسك من عرشك كما يهوي صقر سقط

فجـأة وهو في قلب السماء، انظر الى تلك الحروف ودع الحكمة تقودك، فإنما الانسان ليس الا كائن منقاد وان كان قائدا، فأما ان تقوده شهوته، واما ان تقوده حكمته، ولا حكمـة الا ما اعطتها الالهة لعبيدها، رتب الحروف في كل موقف، رافعا راسك الى تلك القبة التي بناها الاجداد، واستمدوا منها قراراتهـم التي ابقت على هَفِينا كل تلك السنين، او تلقوا تحذيرات منها لـو انهم تجاهلوها لرأيتنا اليوم جميعا في رحى هيلا، نستحيل الى طحين عظـام على جرف نهرٍ من حميم منصهر، لا تتجاهـل الاشارة يا راموس، الالهة لا يجب ان تغضب ابدا.."..

رفعـت الثالثة يدها، وكانت الى جانب الثانيـة، قالت: "نور الالهة سيبقى متسربـا مـن تلك النافذة هنـاك، ليمدك بالقـوة والصبر، نهـارا بشعاع شمس، وليلا بنور القمر والنجوم، لن تضِل وذلك النور هناك ابدا"..

جاء دور السيدة مارلين، وكانت في المنتصف، رفعت يدها وقالت بصوتٍ كان الاهـدأ بينهن: "بين تلك الحروف في قعر القبة تلك، كتبت الالهة مصائرنا جميعا، قصة خلقنا وخلق هَفِينـا، ونهاية كلٍ منا وصيرورتها، ستراقبنا تلـك الحـروف ونحن نقوم بكل يـوم بما نقش عليها من قبـل، لن نعلم ما سيكـون، لكننا نعلم بانه قد كتب هناك ما كان ويكون وسيكون، رفعت عن تلك القبة ايدي الكاتبين منذ بنيت، وجف حبر ماكان قد كُتِب"..

رفعـت السيـدة الخامسة يدهـا، وقالت: "راموس، النور النـور، لا تسر في الظـلام، لا تخرق نور الالهـة بظلمة قلبك، روحك بـين يديها وعقلك بين عينيهـا، انّى ضللـت اضَلَّتْكْ، وقادتـك الى مهاوي هيلا بعيـدا حيث اللا نهاية، ابصر بعينك، وليكن قلبك قائدك، حيث الصلاح في الحكم، والعدل بين الناس، وعمران الجزيرة وبناؤها، الا انك الساقي الذي كان جمادا ونكرة، وصار صنيعة الالهة الجديدة التي تفتخر بها، فكن على قدر فخرها.."..

واخفضـت تلك يدها، فقالت السادسة: "لك ان تتعلم كيف ان يمر يومك

من دون ان تسفك دم احد، او تتسبب بذلك بقصدٍ او غير قصد، فرحيلِ امرئ الى حياة ابدية اخرى على يدك امر ستغضب الالهة بسببه كثيرا، فتهرم سريعا وتعشى، ثم ترتطم بأعمدة هذه القاعة وانت تسير، فما زال من بصيرتك سيذهب ببصرك، فاحذر على الكلمة التي تقول، فإنما هي سيف تزداد حدته كلما ارتقى المرء وزاد من هم دونه، وان هَفِينا باسرها دونك الان..".

ثم جاء دور المرأة الاخيرة، وكانت في منتصف الخمسين عمرا، رفعت يدها الى النور الداخل الى القبة من السماء، وقالت: "من هذا النور جئت واليه تعود، ولا راد اليه الا هو، نور خلقته الالهة مذ كانت، هو النفس الذي تحيا به وتحكم، وتعيش به حتى تنزعه عنك، فتتركك جسدا من غير روح، فاعمل بين سطوعه عليك ومغيبه عنك بما يرضي الالهة، لتصل الى عتبة انطفائه ووجهك يشع بعضا منه" ..

اهبطت النسوة السبعة اصابعهن جميعا على راموس، ونظرن الى عينيه بحدة، كان الساقي ينظر الى الرؤوس المستديرة فوقه، وفي وسطها بان مركز القبة اعلاهن شامخا، وبصيص النور الداخل منه قد انحرف قليلا عن مساره مذ بدأت الجلسة، حين غادر البدر منزلا وحل باخر بمرور تلك الساعة، كانت اعين النساء نحوه صارمة وقاسية، اقتربن بأصابع سباباتهن الى بطنه، ووضعن رؤوس تلك الاصابع على صرته واغمضن اعينهن، تمتمن بكلمات لم يسمعها من قبل، شعر بتلك الدغدغة تتضاءل شيئا فشيئا، ثم غامت صورهن بعينيه، واستسلم لنومٍ عميق..

الفصل 14

"بماذا تشعر؟"، جاء صوت ذو صدى خلفيته صوت ماء رقراق، كان لا يزال يستمع فقط من دون ان يرى شيئا، حاول ان يفتح عينيه، قاومه جفناه ببعض البسالة، الا انهما سرعان ما انفتحا، رفع رأسه بهدوء ليرى ما حوله، لم يتذكر حتى الان اخر ما حدث له، كان قد وجد نفسه جالسا على ارضية القاعة امام الدرجات السبع المؤدية إلى العرش، وبينه وبينها، كان خيال السيدة مارلين ينتصب واقفا..

"لا اعلم..! اشعر بالجوع!"... تمتم راموس بهذه الكلمات، وهو لا يزال يتذكر اخر ما حدث له، اتضحت صورة السيدة مارلين اكثر، كانت لا تزال واقفة هناك، سالت من جديد: "بماذا تشعر .. راموس!"، استفزه الاسم كثيرا، شعر بان دمه قد اختض عندما سمع به، كأنه يسمع به للمرة الاولى، لملم كلماته ليجيب، " اشعر .. بالجوع !"، اغمض عيناه ليلتقط نفسا، كان متعبا للغاية وقد اجتاحه الغثيان، "الجـ .. الجوع!"، قال وهو يلهث تعبا، رفع بصره ورأى ان السيدة مارلين كانت اقرب بكثير، رفع راسه لينظر اليها، كانت تبتسم بود، وقالت له: "ستأكل عن قريب، انت تشعر بالتعب فقط لان عقلك قد تم اعادة تعليمه بمساعدة الالهة ونورها، يوم امس تعلمت معنى القبة وحروفها، ستكون بعد قليل بصحة اكبر، وفي الليل، ستتعلم امرا اخر، اليوم هو الثاني!"..

كانت تلك الكلمات تشكل دفقا غزيرا على عقل راموس، احس بأنه كمن ولد من جديد، الامر الوحيد الذي بدأ يستعيده هو ما حدث يوم امس، بالاعتماد على كلمات السيدة مارلين التي ذكرته بما جرى في الليلة الماضية، تذكر انه كان ممددا على الارض تحت القبة العظيمة، وان نسوة لا يتذكر عددهن كن يقفن حوله، بينهن السيدة مارلين التي نسي مكانها

بينهن بالضبط. قامت تلك النسوة بأمر لا يتذكره. ثم .. ثم نسي كل شيء!

"عليك ان تشرب الماء بكثرة الان ليزول غثيانك. ثم ستأكل لتسد جوعك. راموس. افضل ان ترتاح قبل ان يأتي الليل. لدينا عمل لنقوم به"..

كان كل ما في المكان يبدو وكأنه ينظر نحوه. حتى ذكر الطاووس الذي كان يتبختر اسفل العرش. نظر راموس الى نفسه محاولا استذكار ما جرى بالأمس بالضبط. كانت هناك اصابع تقترب منه. اصابع لمست شيئا من جسده. كن لنسوةٍ احطن به تحت شيء هائل كان فوقه. رفع رأسه بصعوبة اثقلت كتفيه لينظر الى هناك. كانت القبة الكبيرة تجثم فوق المكان بعظمتها ذاتها التي رآها يوم امس. افرزت عيناه ما كان مرسوما على قعرها. وبدأت ذاكرته تستعيد ما كانت عيناه قد رأته البارحة. الحروف الالهية التي انقضت الليلة الماضية وهو ينظر اليها. الحروف. بلى! كانت نسوة يقفن حوله ويتحدثن اليه فيما كان ممددا ينظر الى تلك الحروف. قلن له كلاما كبيرا وعميقا. لكنه لا يتذكر ما كان ذلك الكلام. بدت القبة كجميلة مبانٍ عظيمة تقف ملتحفةً عباءتها. الحروف تتناثر تحت قعرها كسرب حمام ينتشر امام شمسٍ غاربة. اخفض راموس راسه وهو يشعر بدوارٍ شديدٍ. الا انه جفل واثبا على ركبتيه فجأة. عندما احس ان شيئا ما قد لامس كتفه وصاحبه صوتُ اناءٍ انكسر على الارضية الصلدة. التفت مرتعبا وصدم اكثر لما رآه. كانت تلك ايفا. عرفها في اللحظة التي رآها فيها. وقد انكسرت عند قدميها جرة من الفخار كانت تحوي ماءا انتثر وسال على الارض. تراجع راموس وسقط على ظهره وعيناه لا تزالان الى الاعلى. وجثت ايفا على ركبتيها بجانبه. "راموس!. انت بأمان يا راموس. لا تخشى على نفسك. ما جرى يوم امس هو امر ستتعافى منه سريعا.

لقد اخفتني بحركتك تلك واسقطت الجرة من يدي، السيد مارلين تعرف كم اساوي عندك، ارسلتني لأعيد تركيزك، عليك ان تشرب الماء يا راموس، الان!"..

لم يكن للساقي الا ليرى العينين اللتين سحرتاه في لقاءات متعددة وهما قريبتان من وجهه، نظر الى الفتاة وقد بان الشحوب على وجهه، نهضت ايفا وهي تنظر له ممددا قرب قدميها، قالت له: "لا اريد ان ابدو اقرب اليك اكثر مما تقبله السيدة مارلين، سأجلب لك ماءا اخر، عليك ان تثق بي"، وخطت بعيدا عنه نحو قوس من اقواس القاعة الكبرى، حيث يجب ان يكون الماء، فيما بقي هو ممددا ينظر الى ظلها الطويل يغادره، رغب بمناداتها، الا ان صوته لم يساعده، بدت وكأنها تغادره الى الابد، كانت تسير مولية ظهرها اياه، و تسير الى تلك الغرفة لتجلب له الماء المزيل للغثيان، كانت تود احتضانه وهو على هذا الحال، لكنها تعلم بان السيدة مارلين تراقب المكان من زاويةٍ ما، كانت تسير الى هناك، ويلوح وجه راموس المتعب في عينيها، كانت تسير، وتبكي.

في الكوخ العتيق، كانت احداهن قد خرقت الباب داخلة الى هناك، راحت تشم ملابس الساقي، وتتمدد على بطنها فوق فراشه وهي تجعل من جسدها محكاً له، التحفت بقميصه وشمت وسادته، تسللت اصابعها البيضاء النحيلة الى ما تحت ملابسها، انقلبت على ظهرها ونور شمس الظهيرة يتسلل من ذلك الثقب في الاعلى، داعب اصبعها ذلك الشيء برقة وغنج، تذكرت اللحظات التي جذبها فيها من قدمها وهي تقاومه للفرار من السياج القشي، كيف انه امسك بها بقوة رجل الجزيرة الاوحد، حتى غلبت عليها رغبتها فيه فتركت امر الهروب وانقضت على احضانه، كانت دوراثا تشم رائحة الساقي في قميصه، وتتخيله معها في فراشه، في مضاجعة لا تقل رهبةً ومتعة عن اخر مضاجعاته معها، في

ذلك الصباح الذي غادر منه الى مكان ما برفقة اللعينة ايفا، حيث حدث امر ما جعله يغادر الكوخ ولا يعود الى الآن ..

ارتعشت الفتاة قاذفةً زفيرها كحمم هيلا حين يقذفها، وتسارعت انفاسها كفريسةٍ بين فكي وحش، وانتفضت حلمتاها كعلمين على اعلى قمم جبال هَفِينا، ثم انحسر الموج، تاركا اياها جثةً غير ذات حراك على فراش الساقي الذي لم يعد حتى اللحظة...

الفصل 15

وسط حلبةٍ دائريةٍ من التراب وسط القاعة الكبيرة امام العرش، وجاثيا على ركبتيه وراحتي يديه، كان راموس هكذا بعينين متسمرتين على ذلك التراب من تحته وقد بدا شبه عارٍ، هكذا ارادت النسوة السبعة ان يكون لتتم مراسيم اليوم التالي كما بالأمس، وقفن من حوله بطريقتهن ذاتها، وكانت السيدة مارلين في وسطهن.

تحدثت اولاهن وهي تشير بإصبعها الى التراب من تحته: "انها الارض يا راموس، الرحم الذي ولدت منه، حيث لا وجود لك بدونها، لن تعيش ولن ترسخ حيا دون ترابها، خلقت من طينها واكلت من ثمار ثراها، الارض حيث خلقت منها اضلاعك ولحمك وجلدك وعينيك، منها انبثقت واليها تعود، كأنك خرجت من رحم لتعود اليه، هنا اساسك واساس الخليقة المسخّرة لك كلها، وهنا شرارة بدء كل شيء، ومحل نهايته .."، كان راموس لا زال مستمعا إليها، وعيناه تتنقلان بين حبات التراب على الارض من تحته، وتحدثت أخرى منهن: "عمِّرها يا راموس، لا تفسد فيها، حين تحكمها على راس شعبك وخلائق جزيرتك، فلتكن معمرا لا هداما، لا تحرق العشب ولا تقطع الشجر، ضع حجرا فوق حجرٍ لتراه يبلغ قلب السماء، لا تملأ ثراها بأجساد الموتى ودموع الايتام والثكالى، دع كل حبتي تراب فيها يرن بينهما صوت الضحكات والمسرات، وكن عادلا بين حجرٍ وحجر، اغمض عينيك وانت تحكم بين من عليها لترى ببصيرتك الحقيقة والعدالة، لا التمييز والظلم، فان العينين احيانا هما ما يكسر العدالة، اغمضهما لتعبر حاجز الخداع، وسر على الارض بين محكوميك وانت ترى بوجوههم بشارة الاطمئنان..."

بدأ راموس يشعر بدوار اخر، كالذي كان يوم امس حين حدثنه النسوة عن

القبة ونور السماء، فيما تسلل صوت المرأة الثالثة مبحوحا الى مسمعه: "ايها المخلوق من تربها، والمبعوث من بين طياتها، كن ممتنا لهذا الثرى، من هنا تبعث لك الارض بعيون الماء وبذر الثمار، عليها ينساب الهواء ومن اجلها خُلقت الشمس، وطالما انك اجبت بانك ستحمل الامانة لتحكم هَفِينا بكل ما عليها، فعليك ان تتذكر مروج الجزيرة وتلولها، عيون مائها وشواطئها، كلها من ارض، تتذكرها بعقلك وقلبك، تعمرها وتعمل من اجلها، فلو لم تكن هَفِينا من الارض لما كانت، ولما كنت ولما كنا، الارض ياراموس محط كل شيء، ومهبط كل شيء، اياك ان تظلم عليها احدا او تسفك عليها دما او تهرق عليها دمعا، حكمتك حين تعود اليها مستلقيا كل ليلة تفكر بما قمت فيه في النهار، وكما ترتاح النسوة حين يضعن رؤوسهن على صدر الرجال، لانهن خلقن من ضلع هناك، يرتاح الرجل بان يضع راسه على ثرى هذه الارض، كونه خلق من حفنة تراب هناك، الارض هي امك يا راموس، حبيبتك وبيتك، فهب لها مما تهبكَ القبة من الحكمة"..

وبينما انهت ما قالت، تكلمت السيدة مارلين: "في عميق هذه الارض الكثير مما نجهل ايها الرجل، لو نظرت الى اعماق هيلا لرأيت العجب مما لم تر او تسمع عنه، تذكر اننا نعيش على النحاس المنصهر أصلا، والذي لا تنجبه الا النار في باطن هذه الارض، الحمم ذاتها اصبحت حياتنا، لانها من الارض، الارض التي يجب ان تفهم معناها وتستوعب سبب وجودها، وفوق هيلا، تلك المروج الرائعة حيث يركض الصغار، وحيث تعيش حيوانات الجزيرة وهي تجز العشب من ترابها لتعيش، ولتكون طعام موائدنا بما تهب من ضروعها ولحمها، انها الارض يا راموس، كل شيء من بطنها وظهرها هو من اجلنا، كن جديرا بان تكون سيدا عليها ..".

اقفل جفن راموس على عينيه، وبدأ ساعداه يرتجفان تحت وزنه وضعفه

لسماع ما تقوله النسوة، شعر بأن العالم باسره يمتص طاقته منه، حتى لم يعد جسمه قادرا، كأنهن يخلقنه من جديد، وسط تلك القاعة المهيبة والواقعة في قصر عظيم اقصى شرق الجزيرة، حيث يقابل هذا المكان بركان هيلا على الطرف الاخر البعيد منها ، كطرفي نقيض بين الفخامة والبناء والراحة، وبين الجحيم والموت والهاوية، وما بينهما ارض هَفِينا التي تكلمت عنها امرأة أخرى منهن توجهت نحوه قائلة: "كما تنبجس عيون الماء التي كنت تغترف منها لتسقي اهل الجزيرة، تنبجس عيون النحاس الآن، حميما تقذفه هذه الارض حرى وغضبى، للارض لسانها الذي تدافع به عن نفسها، انها ذاتها الارض التي ابتلعت رجالنا نحن النسوة يوم قامت العاصفة، وذاتها التي ابتلعت كل من سقط في هاوية هيلا واحالته الى دقيق عظام او قطرات جلد منصهر، فاحذر الارض يا راموس، الحذر ليس من ان تلفك بترابها او تصهرك ببركانها ، بل ان تموت عليها وقد شتمك كل من كان تحت سلطتك، وتقاذفك على ثراها عابثين بك حيا و ميتا، ان كنت قد خنتهم وخنت ارضهم، حين يرمونك اخيرا في احدى حفرها كقبر لك، قبر عارٍ تلفظك منه تلك الارض في اقرب فرصة، وتدعك ظاهرا مكشوفا من قبرك لسباع ينشنكَ او طيرٍ يأكل منك، الحذر من الارض حيا او ميتا يا راموس، اعط لها تعطك، وخنها فتخونك .."..

بدأ جسم الساقي ينهار تحت ضغط جسمه وغثيانه وتعبه، كانت الكلمات ثقيلةً عليه، انه منهك الان، مُجهَدٌ ومربَك، يود لو انه استلقى الان على الثرى من تحته، قد يشعر بالراحة كما قالت له المراة الثالثة، لكن يجب عليه التحمل قليلا، ليتم الطقس بهدوء، تحامل على نفسه، عندما تسربت الى اذنيه كلمات المراة السادسة: "لن اقول لك اكثر من عبارة واحدة، اذا لم تشعر بالأرض كجزءٍ من جسدك وروحك، فلست جديرا بها .."، بدأ نفَسهُ يتسارع وقد ادرك حجم المسؤولية التي تضعها

النسوة فيه، كان يشعر كأنما هو في ظهر غيبٍ او حلمٍ طويل، نائم وصاحٍ، موجــودٌ ومعدم، خفيفٌ كريشةٍ وثقيلٌ كمدفــعٍ، همَست السابعة بآخرٍ كلمــات الطقس كله، قالت له ثــلاث كلماتٍ فقط: " الارض هي انت".. واغشـــي علـــى راموس ، وسقط على وجهه بوجه الــتراب الذي دونه، فيما اشارت النسوة بأصابعهن هابطات نحوه، ووضعنها على قفا راسه، ولم يشعر الساقي بعد ذلك بشيء.

الفصل 16

امـام مرآة صغيرة، كانـت ايفا تنظر لنفسها وقـد انتبهت على شحوب وجهها وكثاثة شعرها، بدت هالات غامقـة تستدير حول عينيها، كانت تمشـط ذلك الشعر بيدٍ يائسة في تلـك الغرفة الصغيرة من القصر، لقد اعتمدتهـا السيـدة مارلين لتساعدها على تدريـب راموس وخدمته فترة وجودها في ذلك المكان الكبير، كانت ايفا تشعر بانها تفقد الساقي بفعل الاجهـاد الذي توقعه النسوة السبعة فيه منـذ يومين، ستتضاءل قوته اكثر فأكثر، قد يموت! وقد يفقد عقله لزخم (الكلمات) التي تُسمعه اياها النسوة، والتي يجب ان تستمر سبعة ايام، شعرت الفتاة بأن عليها الايمان بمـا تفعله النسوة، فهن يبدين متأكدات مـما يقمن به، الا ان تذكرها لحال راموس الذي يغمى عليه لليلة الثانيـة بفعل (الكلمات) اعاد بها شعور الخـوف والقلـق، وقالت في نفسهـا ان كانت النسوة تنـوي مسح ذاكرته بمـا يقمن به قبل تنصيبه ملكا على جنة هَفِينـا الرائعة، مسح ذاكرته سيعني ان مكانها في عقله وقلبه سيتلاشى...

"قلقـة عليـه؟"، جاء صـوت من خلفها وقـد اخترق الصمـت كسهم طائش، نظرت ايفا لما وراءها في المرآة، واحنت رأسها، "بلى سيدة مارلين!"، ابتسمـت السيدة مارلين واجابت: " يجب عليك ألّا تفعلي ذلك، راموس انسـان جديد، انسان سيكون ملكا على هَفِينا، بمائها وعيونها واناسها ومروجها، وهذه المسؤولية خطيرة يا ايفا، يجب ان يتعلم كل شيء قبل ان يتـولى حكم اي شيء"، واقتربت من الفتـاة جالسةً الى جانبها، "ايفا، انت ترين ان الشـاب يستنفذ قوته كلها في ايام التدريب والتعليم، انها القـدرة السابقة والافكار السابقة والشخصية السابقة التي يجب ان تـزول عنه، وتحل محلها تلـك التعاليم والحكمة التـي تهبها له الحروف

التي في قعر القبة. اننا نعيش هنا في عالم ان لم نكن فيه اقوياء بأبداننا فيجب ان نكون فيه اقوياء بعقولنا. الساقي لا يمكن ان يحكم بعقلية الساقي. ينبغي ان يطرد تلك العقلية من رأسه وان يولد من جديد. ولا سبيل امامه لذلك الا ان يمتص حكمة (الكلمات) ويتعلم التعامل معها".

نظرت ايفا الى عيني السيدة مارلين وقالت: "ماذا ان نساني بسبب طردكن لشخصيته القديمة واحلال شخصية الملك مكانها!". ابتسمت السيدة مارلين واجابت: "هل تعتقدين باننا لو عمدناك كما نعمده الان ستفقدين الحاجة الى المضاجعة مثلا؟ او تفقدين اهتمامك بشعرك كإمرأةٍ كما تفعلين الان؟ هناك بديهيات ورغبات لا يمكن ان تتغير. اجسامنا وعقولنا هي قاعدة غير قابلة للتحول. بل قابلة للتأقلم والتكيف مع الموجود. وما سيوجد سيجعل من واجبك ان ترسخي وجودك بعقله. لكن للحد الذي لا يجعل منك زوجةً له. ولا عشيقة متفردة. ولا مانعة له من ان يضاجع غيرك". واقتربت منها وامسكت وجهها بين كفيها: "ايفا الرائعة. راموس لكل هَفِينا".

كانت عينا ايفا تقدحان بمواجهة عيني السيدة مارلين. وشعرت بان رجل الجزيرة الاوحد يبدو وكأنه يبحر بعيدا عنها بفعل الضربات الليلية المتواصلة من النسوة على عقله. لكن ايفا التي كانت تتمتع ببعض القوة تكلمت وقالت: "سيدة مارلين. مهما يكن. راموس سيبقى الاقرب إليّ ولو بمقدار خطوة واحدة اضافية!". ونهضت من مكانها وهي متقدة بالغيرة والخوف على راموس. فيما قامت السيدة مارلين وخطت نحو الباب خارجة. وقبل ان تصل عتبته قالت لها: "غدا سيتم تعميده بكلماتٍ حول امر جديد. سيحتاج اليك بعد ذلك. كوني اقرب له. فهو الان كالطفل الذي يألف صوت امه وهو في بطنها. ليألف صوتك ورائحتك يا ايفا"..

بقيت الفتاة صامتةً، فيما غادرت السيدة مارلين الى قاعة العرش لتعدها لتعميد الغد. اما راموس، فقد كان في غرفة مجاورة ملتحفا، وجسمه يرتجف بشدةٍ هزت سيقان السرير.

الفصل 17

بزغ الصباح، وتحركت الستائر العالية في القاعة الكبيرة بفعل ريح بحرية شرقيةٍ هادئة، تسلل نور الشمس الى تلك القاعة في حزم منسابةٍ، وعلى الارضيةٍ اللامعة، كان راموس جالسا بصمت وقد شخصت عيناه على حركة الطاووس عند اقدام العرش، اذ كان يرفع رقبته الزرقاء وينظر هنا وهناك، بينما قدماه القبيحتان تتنقلان بخطواتٍ مترددة، بدا الطاووس كانه خليط من الغرور والسمو، والجمال والقبح، والنظافة بريشه الملون، والقذارة بمؤخرته المتسخة.

منذ وصل راموس الى هذا المكان، ومنذ بدأت عملية تعميده ليكون ملكا وحاكما وذكرا اوحدا هنا وهو لم يعد يتكلم الا نادرا، انقباضاته العقلية بفعل تلك الطاقة الغريبة التي تمتص كل قوته اثناء التعميد بدأت تجعل منه انسانا اخر، لا يعرف ان كان قد وقع في ورطة الحكم او انها فرصته لعيش حياةً مختلفة تماما عن حياة الساقي التي كان يعيشها، الهدوء في هذه القاعة لا يشوبه الا صوت المياه المترقرق من خلف العرش، و بعض رفرفات اجنحة الطواويس عندما تشعر بالتعب، القاعة مكانٌ رائع لاستخلاص صفاءٍ ذهني عميق، تسللت عيناه الى اعلى العرش، وتسلقتا الى القبة في الاعلى، حيث الحروف المتناثرة على قعر القبة، قالت له النسوة ان حصوله على خيارٍ بالتصرف في حالة الحيرة يحلها له النظر الى تلك الحروف، وتشكيل اول كلمة منها في اولى ثواني النظر اليها هو بمثابة الحصول على رأي الالهة وارشادها، نظر الشاب الى الحروف، وتنقلت عيناه بينها محاولةً ايجاد اولى الكلمات التي سترشده في حيرته، حيرة كونه لا يزال ساقياً او كونه ملكاً مستقبليا، حاول النظر اليها والتنقل بينها بعينيه من جديد، لكنه لم يعثر على اية كلمة تقوده الى طريقه،

ادار راسه ونظر الى النصف الاخر من القبة، حاول البحث فيها عن كلمة، ولو كلمة واحدة، ضاق اتساع عينيه وشعر كأنّ عينيه تلامس قعر القبة لشدة تركيزه، لكنه جفل فجأة وارتد الى الوراء، حينما داهمه صوتُ امرأة.. "تبحث عن الكلمة التي تريدها ؟"، نظر وراءه، وكانت تلك السيدة مارلين، اكملت مقتربة: "راموس، تعميدك لم يمض عليه سوى يومين، يجب ان ينتهي التعميد في الايام السبعة كلها قبل ان تتمكن من العثور على الكلمة الاولى، الحروف ليست فقط رسوم اسفل القبة، انها روح الحكمة التي لا تُمنح لأي كان، كأنت قبل اليوم السابع، لقد كان مجلس الحكم بأكمله يعرف طريقة التعامل مع القبة والحروف، لذا، عاشت هَفِينا بأمن ورخاء طيلة حياتها، بسلام ورفاهية، وحين حاول افراد إدارة الحكم ذات مرةٍ ان يختلفوا بينهم ولم يحتكموا الى القبة، حل الغضب سريعا من الهة المعادن، فاختلفت الالهة بكميات واستقرار معادنها التي تحت هَفِينا كما اختلفوا هم، و تغير وضع الارض تحت الجزيرة بسبب ذلك الاختلاف، لتنهار مساحة من هَفِينا ويبتلع بعضها بركان هيلا، فيما ابتلع الاخر البحر، فحدثت الحافة المنهارة، والتي تراها كأنها قد تم اقتطاعها من الجزيرة بمسطرة من زجاج، كأن الالهة حين اختلفت باختلاف اعضاء إدارة الحكم دمرت بعضا من هَفِينا، وانذرت بتدمير المزيد ان لم يتم الاحتكام الى حروفها اسفل القبة، وهكذا انفتح هيلا بوجهه البغيض امامنا نحن سكان الجزيرة بكل رعبه، وصارت رسالة الالهة لنا: (اعمالكم هي ما سيحدد، ان كنتم ستعيشون في جنة هَفِينا، او تهوون حتف انوفكم الى هيلا!).

لم يتحدث راموس، وبقي ينظر الى عيني السيدة مارلين وهي تسرد له ما لم يسمع عنه من قبل، وعلى دكةٍ منخفضةٍ في القاعة، جلست الاخيرة لتكمل له السرد: "حين غضبت الالهة في وقتها، كان غضبها قد شمل

حتى الفارين من الجزيرة لاعتقادهم ان هيلا سيبتلعها بالكامل. لذا، فقد غرقت حينها كل السفن التي كانت خارجة من الجزيرة...". ادمعت عينا راموس فجأة، واحنت السيدة مارلين راسها قائلة: "اسفة على ما قلت راموس، اعلم ان والديك قد غرقا بسفينة رحلتهما ذلك العام، ولم يعودا حتى الان، ولن يعودا الى الابد!"...

رد راموس بعينين دامعتين: "ولماذا ابتلع هيلا الارض فوق الحافة المنهارة فقط ولم يبتلعنا جميعا! لم يبتلع كل الجزيرة ومن عليها يا سيدة مارلين؟" قال وقد انهارت احدى دمعاته على خده، فأجابت السيدة وقد نهضت: "انه الابتلاء يا راموس، انها تريك عقاب البعض ليتعظ الغير"، خطت مولية اليه ظهرها وقالت: "ستنسى كل هذا يوم تصبح على العرش، تهيأ لهذه الليلة، فهي ليلة التعميد الثالثة، ستتعلم معنى المياه!"..

تلاشت كلمة "المياه" التي قالتها بدخولها احدى الاقواس البعيدة في القاعة، فيما بقي راموس هناك، على ارضها، وعاد لينظر في الحروف هناك، في قعر القبة الكبيرة.

في مكان اخر من هَفِينا، تعالى صوت عويلٍ ونشيج اضافي، يبدو ان الحزن والموت لم يفارق هذه الجزيرة بعد، فقد رحلت والدة باربوسا الحسناء كمداً على رحيل زوجها وابنها وزوج ابنتها العروس ، فيما بقيت باربوسا تمدد اجل ثوبها الحزين، حتى يوفيّ حجم الحزن الذي مر بها، ليتركها هنا وحيدة ..

الفصل 18

كان نـورٌ عظيم يشع في عينيه، نورٌ بلا توقف، يـروح بمينا وشمالا، لا شيء خلفـهُ ولا امامـه، كأنما ينهال في نهر كبير من مصـدره الى عينيه، فروحه وقلبـه، وصوت النـور لم يكن ليسمع، بل كان يُحَس، كأنما كان يقول له: "انا حياتك وماتك، انا حيث لا تحيا بدوني، وانا حيث سريتُ بمَن جئتَ منهم، وحيث اسري بك متى اشاء، قدسني فانا شحيح، وانعم بي فانا كثير، اصل كل شـيء، واول كل شـيء، حيـث لا صلب يخلو منـي، ولا رحم ينفتق في آدمـي بدوني، حيـث غبتُ غابت الدنيا، واضمحلت الحيـاة، انا صوت الارض الصامتة الكئيبة، فاسمع مني هديرا لا ينقطع .. "..

انتفضت رئتـي راموس بعنف، سعل كما لم يسعل ابدا هكذا في حياته، انقبض صدره وعاود الشهيق، وتفتحت عيناه لمحةً فلمحة، وبريقا فبريق، ولما زال ما غشاهما، كان يشعر ببردٍ شديد، وقـد رأى رؤوسا سبعةً تحيط بـه، واحس بصلابة وعـري الارض من تحته، رمش لمرتـين وثلاثة، فاتضحت امامـه وجوه النساء السبعة، واكتشف نفسـه مبللا بالكامل، وان ماءا لازال يخرج من انفه وحلقه، لقد كان راموس غارقا ...

"سمعـت تلك الكلمات يا راموس، ذلـك هو الماء، وقد تم تعميدك به لهذا اليـوم.."، قالت السيدة مارلين، وتذكر راموس طقوس هذه الليلة قبل ان يقفـد وعيه ويستعيده قبل ثوان، فقد اجتمعـت النسوة في ذلك المساء، وانزلنـه في حوض ماءٍ وضع امـام العرش، وبقي يفقد هـواءه وهن يتلين الكلمات، حتى غاب عن وعيه، ولم يدر بعدها ماذا حل به ..

"مـرت كلماتٌ كثيرة حين كنت راقدا، ان لم تكـن قد استمعت لها، فقد سمعها قلبك، تطهرت الان بالماء يا راموس، واصبحت معمدا به، استفرغ اخر القطـرات في جوفك الان، ولتنعم بالدفء بعد برد الماء والهواء"، انهت

السيدة مارلين كلماتها، واستدارت النسوة السبعة خارجات من القاعة وقد جرجرن ذيول ثيابهن الطويلة، واحدةٌ فقط جاءت نحوه بغطاءٍ سميك، ايفا.

جلست القرفصاء بجانبه، ومسحت راسه المبلل تماما بيدها، ثم غطته حتى اصبح مدثرا على الارضية الصلبة، كان قد اشتد ارتجافه واحمرت عيناه، لم تكن ايفا لتصنع شيئا اكثر من ان تهتم به هكذا، فهي لا تستطيع ان تبدي اية مبالغة في العطف والاهتمام به وهناك اعين للسيدة مارلين تراقب، قد تبعدها عن القصر الكبير ان هي شكت بان لايفا مآرب آنية وطموحا اكبرا الان بخصوصه، مسحت قطرةً انسابت على جبينه، كان جفناه يرتجفان كأنهما يحاولان التفكير او النوم، كلمات كثيرة طفت على سطح ذاكرته كفقاعات ملونة، كلمات بسبعةِ اصوات، جميعها لإناث، تحدثت جميعها عن الماء، فيه وما به وما عليه، لم يشعر بأصابع ايفا على وجهه تحاول تتبع تلك القطرات المنتشرة هنا وهناك، فجلده المقشعر من البلل كان لا يحس بشيء، عاود ثقل تفكيره الظهور من جديد، ثقل راسه بكل شيء، وتلاشى العالم خلف انطباق جفنيه..

الفصل 19

انقشعت الظلمة امامه الى نصفين، وبان بينهما افق عظيم، بقي الاسفل مظلما، ينما كان النور يمتد ابيضا فاحمرا فازرقا في كل مكانٍ من الاعلى، ثم بدأ ذلك النور بألوانه ينعكس على النصف الاسفل كما لو كانت مرآة، يتغير كما يتغير، ويثبت كما يثبت، كان النصف الاسفل يموج ويتحرك، وبدا كأنه يتكون من الاف الاهرامات الصغيرة التي تتحرك كجمعٍ من الناس في عرصةٍ واسعة، تهادى الصوت من بعيد الى مسمعه، ثم هدر بصوت زمجرةٍ كبير، وبانت اطرافه ذات الرغوة البيضاء، تبين كل شيء امامه، لقد شق النور الظلام صانعا السماء والارض، ولم تكن الارض ذات تربة، بل بحرا هائجا طائشا مذعورا، حتى شعر كأن تلك المياه قد جرفت قدميه، ارتفع الموج اعلى بغضب، ثم امتد باتجاهه كسيلٍ عرم، واقترب بسرعةٍ هائلة من وجهه حيث يقف، اوشك على جرفه بقبضةٍ من مياه، وافاق راموس مرتعبا ..

كان ممددا على سرير من خشب في غرفةٍ صغيرة يألفها، غرفته في القصر الكبير حيث يقيم مذ وصل الى هنا، شعر بان العرق يغطي جسمه كله، لقد رأى في منامه كيف بدأ كل شيء في هذا العالم، قصة الوجود والعدم، رؤياً لم يسمع او يرَ او يتخيل مثلها يوما...

"الحروف!"..

تمتم بهذه المفردة، "الحروف!، كدت ارى الحروف!"، قال وهو يتنفس بسرعة شاعرا بندم كبير، رمى الغطاء على الارض وحاول النهوض ليمشي في الغرفة، شعر بدوار في رأسه، كإن جذع شجرة قد ضرب قفا جمجمته، لكنه تحامل وحاول النهوض، "كدت ارى الحروف!"، قال وقد وضع قدميه على الارض، دفع بنفسه وقام ناهضا، فاشتد

الـدوار عليه، لكنه انتبـه الى جسمه، فقد كان عاريـا تماما، نظر الى هيئتـه وطوله في تلك الغرفـةِ الصغيرة، كانت ليلـة البارحة مليئة بالمياه والغرق، الغثيان والـدوار وفقدان الوعي، لكنه لم يشعر بعريه، شعـر بذلك الاحساس لأول مرة منـذ طفولته، من قبل ان تخبره امه ان العـري شيء مشـين، وان عليه ان يستر اعضـاءه تلك، وبقي حذرا منـذ ذلك اليوم كـي لا يظهر لغيره شيئًا مما حذرتـه امه منه، تجاهل امر جسده، وانتصب واقفا وهو يسترجع ما رآه في ذلك الطيف، امرٌ ما كان في النصف الاعلـى مضيئا، مضيئا كالحروف التي في قعر القبة الكبيرة، لكنه لم يرها، وافاق قبل ذلك..

تجاهل امـر عريه، وامر الدوار، وبدأ يخطو طـول الحجرة وعرضها وهو يردد "كنـت سأرى الحروف!، الحروف!!"، بين ندمٍ للإفاقة من نومه قبل رؤيته اياها بشكل واضح، وغضب لذلك، كان يمشـي ويردد: "كدت اراها! الحروف!"، كان يريد التعرف الى اول كلمة قد تتشكل امامه من حروف القبة التي رآها في منامه، لعلها تنبئه بما سيكون بعد ايام التعميد، لعلها ستنصحه الان، لن ينفع النوم من جديد، فقد زالت الرؤيا، وانحشر في زاوية الافاقة البعيدة جـدا عن قبة المنام، فجـأة، توقف عن التفكير باستعـادة تلك الرؤيا، وقرر الخـروج من الحجرة الى القاعة الكبيرة ومحاولة النظر الى قعر القبة، لعل الرؤيـا كانت اشارة من الالهة لكي ينظر الى القبة الحقيقية بدل التي في المنـام، تحرك الى الباب، وكاد يخرج عاريا الى هناك، لكنه تنبه الى انه يجب ان يغطي جسمه خشية السيدة مارلين، استدار عائدا يبحث عن ثوب له، الا ان الباب كان قد فتح من خلفه...

"لـن تراها الان!"، قالت السيـدة مارلين وقد ولجت الى داخل الحفرة، امسك راموس رأس غطاء نومه وغطى به جسمه، "ارى ماذا!؟"، اجاب وهو مصدوم لقول السيدة مارلين، "كيف عرفتِ!؟"

اجابت السيدة مارلين وهو تخرج بعض الملابس من خزانة خشبية كانت في احدى زوايا الغرفة: "ستنظر الى الحروف لكنك لن تجد شيئا، لم نكمل تدريبك وتعميدك بعد، تذكر، اليوم هو اليوم الرابع من الايام السبعة، قبل ان تصبح جاهزا للجلوس على العرش، عندئذٍ فقط يمكنك الاستعانة بالحروف..". اخرجت ثيابا من الخزانة واغلقتها، ثم نظرت في عينيه وقالت: "انت الان لا شيء يا راموس!".

"لا شيء!!" قالها بغضب.

"بلى"، ردت وهي تضع الثياب على طرف سريره، "لست ساقيا ولا ملكا، انت تخلق الان، عليك ان تستعد للأيام المقبلة، كل شيء سيكون جديدا عليك، وقبل ذلك اليوم..". استدارت خارجة، "انت في عالم ليس له ملامح!"، واغلقت الباب خلفها.

شعر راموس بالصدمة لما قالت، هل وصل الى نقطة لا عودة نهائية! وماذا بعد اليوم الاخير من التعميد، لماذا لا يستطيع اللجوء الى الحروف الالهية الان؟ لماذا تحجب الالهة حكمتها عنه -ان صح كلام السيدة مارلين- ؟، توجه غاضبا الى ملابسه وبدأ بارتدائها، وبينما كان يفعل، تذكر كيف ان النسوة يوم امس خلعن عنه ملابسه اثناء بدء تعميده بالمياه، ثم اغرقنه في ذلك الحوض المملوء ماءا وهن يتلين تلك الكلمات، بعض منها علق في ذهنه، واخرى يبدو انه نساها..

طرق الباب طرقةً خجولة، فقام اليه مرتديا ملابسه، وفتحه ليجد ايفا تقف خلفه وعلى وجهها ابتسامة استحياء، كانت تحمل له الافطار، ودخلت بلا اية كلمة من امامه، وضعت الطعام على ارضية غرفته، وهمت خارجة بالهدوء ذاته، واغلقت الباب.

لم يدرك راموس لم كل هذا التحول، ولم يفهم لماذا ايضا كانت كل محتويات صحون افطاره لهذا اليوم من النباتات، ولم يتخللها اي نوع

من انواع اللحوم او كل ما يؤخذ من كائنٍ له عرقٌ ينبض. على الرغم من ان طعامه للأيام الماضية كان يحتوي على لحم وبيض. سيفهم كل شيء عن قريب. اخبر نفسه بذلك. وجلس الى طعامه بهدوء.

الفصل 20

على ارضية القاعة الكبيرة وفي المساء، كانت شموع قد اشعلت في المكان مثل كل ليلة تعميد، أُجلس راموس على ورقٍ حيكَ من سعف نخلة، واحيط بحلقةٍ من اغصان الزيتون وعيدان اشجار الرمان، وطوق كل ذلك بأوراق اشجار التين الدبقة.

"يومك الرابع، التعميد بالنبات.."، قالت المرأة الاولى من النسوة السبعة حوله، اذ بدأت تتلو الكلمات لتعميده، وابلاغه الحكمة حول ".. كل ما خرج من بطنها الى ظاهرها، نافعا من عليها وماكثا فيها، حين خلقت الالهةُ السماء والنور والكلمات، تلته بخلق الارض وترابها وجبالها، ثم شقت ماءها وملأت بحورها، ثم قالت للنبات ان يفتق الارض ويشرب المياه، ان يشرئب الى النور ليشهق الحياة، فكان النبات، ذلك الذي ملأت ببعضه بطنك اليوم وحده، لتعلم انه وحده قادر على ان يدعك حيا .. ويحيي غيرك من الكائنات...الالهة تخلقه فوق الارض وتحت البحار... فاحذر ان تقطع شجرة او تعبث بنبات او ..."

وتوالت النسوة يتحدثن ويتحدثن حتى احس كأنما قد أصابه الصمم وحين كان دور المرأة السابعة لتتلو الكلمات ، كان راموس قد غط في غيبوبة عميقة...

مثل كل يوم.

الفصل 21

كان الصباح قد انشق عن ليلٍ نسي راموس معظم ما جرى فيه. كان جالسا في غرفته الصغيرة وهو يحاول تشغيل ساعته الخشبية. لم تكن تعمل، على الرغم من انه يعلم كيفية ادارتها وتشغيلها. فهي اعز ما يملك. لكنه فشل اليوم في محاولاته لإعادتها الى النبض. كانت متوقفةً عند الساعة السابعة تماما. ولم يتحرك بندولها ابدا. حاول تشغيلها من جديد وادار نابضها بمفتاحها الخاص. الا انها لا زالت كذلك. على الرغم من انها كانت تعمل بشكلٍ جيد قبل ان يأتي بها الى هنا. الى قصر بردوزا.

وضعها في حجره. وبدأ يزيح التراب عن زجاجها الذي اكتسى ترابا وغطى الارقام من تحته. كان جالسا على الارض بجانب السرير. وهو يربت على ذلك المتر الخشبي المزخرف بعناية. والذي يبدو انه فارق الحياة الى الابد.

لم يكن يعلم الوقت بسبب توقف ساعته. لكنه ادرك انه الوقت ذاته الذي جاءت به ايفا يوم امس بوجبة من الخضار. فقد طُرقَ الباب الان. وضع الساعة على السرير وراح ليفتحه. وكانت تلك هي ايفا كما توقع. وقد دخلت اليه بوجبة افطار لا تشبه وجبة الامس. لقد كانت رائحة لحم الظبي المشوي تفوح من طبقها الكبير. وقد خالطت رائحة حساء الخرفان. فيما كان خيط من رائحة القطا المحشوة يترك اثره وراء خطواتها. وضعت الطعام على ارضية غرفته كما الامس. ونظرت الى عينيه تاركة المكان. واغلقت الباب وراءها.

التفت راموس الى الطعام هناك. كانت وجبة الامس خالية حتى من زيت الحيوانات. اما اليوم. فلم يكن على مائدته سوى لحومها. مشوية ومسلوقة ومحشية كما لم يأكلها من قبل. ولم يكد يتنشق رائحتها

حتى جلس الى مائدته، وازاح الاغطية من الصحون، كان كل شيء شهيا، وانقض على طعامه كما لم يفعل من قبل.

ذلك المساء وفي حجرته تلك، كانت ايفا تقف خلفه وهي تضع ملابسه عليه، كان قد لاحظ انه كلما اقترب من نهاية التعميد بأيامه السبعة فان ملابسه تزداد جمالا، تطريزا وبريقا، الا انه حين يبدأ التعميد، فانه لا يبقى الا بجلده، ربتت على كتفه معلنةً ان كل ثيابه اصبحت جاهزة، لم تكن تنطق ابدا، رأى في المرآة امامه كم كان يبدو جميلا، تنقلت عيناه على ثيابه ووجهه، ثم استدار نحو باب الحجرة، ماشياً الى القاعة الكبيرة وسط قصر برادوزا الهائل، وكانت ايفا تتبعه بخطواتٍ صامتة.

حين اطل الساقي على القاعة، امام العرش وفي الباحة تحت القبة الهائلة، صدم برؤية مالم يكن يتوقعه، لقد دخلت اكثر من عشرين فتاة من اجمل ما رأت عيناه الى هنا، كلهن يرتدين البياض، وقد امسكت كل واحدة منهن بسلسلة بيدها، وكل سلسلةٍ انتهت الى عنق حيوان لا يشبه الاخر الذي بجانبه، كانت اناث الاسود والغزلان والنمور واللقالق والسلاحف والطواويس والارانب والخرفان والبقر والثعالب والايائل جميعها، جنبا الى جانب، جالسة ومستقرة، ومسلسلةً الى ايادي الجميلات، فيما عجت القبة الهائلة بمئات الطيور الملونة الرائعة الجمال، وهي تطير بصفير وزقزقة خلقت موسيقى عظيمة تجلت تحت اخر خيوط النهار الداخلة من ثقب القبة، كان المشهد يضج روعةً امام راموس.

التفت الى ايفا، اومأت له براسها، وسار امامها الى حلقةٍ في المكان سيكون تعميده اليوم عليها، جلس على الارض بمواجهة كل ذلك الجمال، وتحت كل تلك المجرة المزقزقة من فوقه، لتدخل النسوة السبعة بأرديتهن الغامقة مقتربات نحوه، ووقفن من ورائه، وتقدمت ايفا نحوه بأمر احداهن، خلعت عنه رداءه لتتركه عاريا امام كل من كان هناك، ثم وضعت راسه على

وسادة مخملية، واقتربت النسوة السبعة اكثر منه، وحين تحدثت اولاهن وصدح صوتها في المكان، هبطت كل الطيور المنتشرة في القاعة لتحط على اي شيء، وانخفضت الحيوانات برؤوسها، اذ صمتت المخلوقات جميعا بعد اخر رفة جناح اصدرها اخر طير هبط حاطاً.

"يومك الخامس.."، صدح صوت المرأة الاولى، "وبعد ان تعرفت الى السماء وحكمة الحروف، والارض وما فيها وما عليها، والماء وما به وما عليه، و النبات وما يؤتي ويفعل، تتعرف اليوم -ايها اللا شيء- الى ما هو اقرب اليك، الى المخلوقات المتحركة الاولى، الدواب والطيور، حين خُلقت بألوانها وارجلها واجنحتها المتعددة، لتركبها وتأكلها وتتعلم منها، لتحلبها وتنسج ثوبك من صوفها ووبرها ومن جلدها، ولتكون معها الاقرب بين الخلق، فان انت صنتها حصدت ما لا نهاية له، وان اذيتها وقضيت على وجودها، فانت وحيد على ظهر هَفِينا تلوم نفسك، وتقضمَ أظافرك بأسنانك، بلا ظهر تركبه، ولا كتفٍ تأكله، ولا نسيج تلبس منه، ولا قوة تحرث بها ارضك .."..

ثم تحدثت المرأة الثانية، فقالت: "لك منها ما هو في البر والبحر والسماء، فانظر حولك ترها، واغطس الى الماء ترها، وحدق فوقك ترها، لن تعيش بدونها، حتى سباعها ودباباتها لها دور من حيث لا تدري، فلا ترفع رمحك بوجهها الا لأمرين: ان اردت اكلا منها، او ان هي هاجمتك تريد اكلها منك.."..

طالت الليلة، ولا زالت النسوة يتلين كلماتهن عليه الكلمة تلو الكلمة، كانت الطيور قد حشرت رؤسها تحت اجنحتها لتغفو، اما اللبوات فقد بدأت بالتثاؤب، وركعت احدى الابقار على الارض لتنام، فيما استلقت احدى القطط على ظهرها وغطت في نومٍ عميق، كما راموس تماما.

الفصل 22

في صباح اليوم السادس، كان الساقي لا يزال يحاول اصلاح ساعته الملتصقة اميالها بالساعة السابعة تماما، حاول مرارا ان يضربها، ان يضغط على مؤقتها، ان يحرك عقاربها، دون جدوى، كانت تأبى حتى ان تغير مكان اميالها وان لم تعمل، يبدو ان اسطوانة التحكم بها قد افلتت، شعر بالضجر والملل منها، وكاد ان يحطمها لولا انها اخر ما تبقى له من ذكريات والديه، ولوهلة، فكر في امر لم يفكر به من قبل، ماذا ان كان والداه قد نجحا في الوصول الى وجهتهما والحصول على عمل له؟ ماذا لو كان هناك الان وقد حصل على حياة مناسبة خارج هفينا وسافر بعيدا للعمل في مكان اخر من العالم، بلاد الاسك مثلا!، او ابعد من ذلك، لكان كل عالمه قد اختلف، ولكانت كل حياته تسير الان على نحو مغاير، لكان الان كاتبا في مكان ما، او حتى وان كان عداد اوزان لحوم مثلا، كان يبدو مبتسما وهو يسرح بتلك الافكار، ماذا لو لم تغضب الالهة في ذلك اليوم وتغرق سفينة ابويه؟ لو انها لم تكشف عن وجه هيلا المهيب تحت الارض وتدمر الحافة المنهارة؟ ماذا لو ..

وفتحت الباب بصوت عكر كثيرا من افكار راموس: "لم يكن ذلك ليحدث ابدا!"، دخلت السيدة مارلين كعادتها في هذا الوقت من كل صباح مقاطعةً افكاره، وصُعق لما قالت، كيف لها ان تعلم مافي صدره وعقله؟، "نحن النسوة السبعة نعلم احيانا ما في داخلك راموس!"، اجابها: "مستحيل! لكن يبدو انني كنت افكر بهذا عندما كنت في غيبوبتي، وقد تحدثت عنه في تلك الغيبوبة!"، قالت له وهي تجلس على كرسي في احدى زوايا الحجرة: "كلا راموس، صوت تفكيرك اصبح اعلى من حنجرتك الان، طاقة عقلك بدأت تتوهج بعد خمسة ايام من التعميد، الان دعني اخبرك،

بـأن كل ما مـررت وتمر به الان مكتـوب في القبة العليـا، كل شيء لا يتم تبديله مهما فعلْت، لقد كتبت هذه الحروف في الازل لتضع مسارا لحياتنا جميعـا، وما عليها هناك هو حياتنا وما فيهـا وما ستكون عليه، والداك توفيـا لأنه مكتوب على القبة ان يموتـا، وازواجنا رحلوا لأنه مكتوب هناك ان يموتـوا، عليك ان تفهم ان كلمة (ماذا لو) ليست سوى خيال موجود في جمجمتك فحسب، اما على الارض، فهناك ظل القبة وحده!"..

كانـت تبدو علـى وجه راموس علامات ذهـول عميقة وهـو يستمع الى السيدة مارلين، لم يجرؤ على سؤالها عن كيف ولماذا، ومن الذي خط تلك الحـروف هنـاك، لكثرة ما كان في صـدره من التسـاؤلات، نهضت هي من امامه، ونادت على ايفا لتدخل طعام افطاره لهذا اليوم.

ولجـت الفتاة الحجـرة، ووضعت على طاولة قريبـة صينية طعام لم تحتو على ما احتوته في اليومين الماضيين، لان كل ما فيها لم يكن سوى..

قدح ماءٍ فقط.

الفصل 23

ذلك المساء، اليوم السادس لتعميد الساقي ملكا على جزيرته ومن عليها، كانت قاعة العرش خالية الا من النسوة السبعة، وايفا التي تقف بعيدا، فيما اقترب هو الى منصف المكان عاريا كما امرته السيدة مارلين، كان الطقس في الخارج ماطرا، ولم يكن في القاعة اي من تلك الطواويس، هو والعرش والسبعة وايفا فقط، وسرير وسط المكان سيستلقي عليه، كانت وجوه النسوة غريبة اليوم، قلقةً ووجلة، نظرت كل امرأة من السبعة الى الاخرى حين كان راموس يسير ببطء نحو السرير كما كان قد ولد، عاريا وحافيا، خارجا من حجرته في جانب القاعة الى منتصفها، كانت ايفا تنظر اليه نظرة الخائف القلق، فهي تعلم ان اليوم هو يوم التعميد السادس، وهذا اليوم لن يخص القبة او الارض او الماء، ولا النبات ولا الحيوان، هذا هو يوم راموس نفسه..

جلس الساقي على حافة السرير والخوف باد على عينيه، وضعت احدى النسوة يدها على جبينه بهدوء ووضعت راسه على الوسادة، بدت مشاعل النار في القاعة ترتجف بضيائها لشدة الريح خارجا، فيما صدحت السماء بصوت رعد دوى صداه في اروقة قصر بارادوزا الهائل، مرتدا كموج على حافة شاطئ صخري الى اذان الموجودين، صادحا بصوت الافق كصخرة هاوية على اخرى، آن اوان التعميد الاهم، ونطقت المرأة الاولى ..

"ايها اللا شيء، الصائر الى شيء، القادم من امس شيء، وذاهبٍ الى غد شيء، والجاثم الان كشيء والقائم من هنا كشيء، اعلم، ان لا قبة ولا تراب، ولا ماء ولا نبات، ولا دابة الا لأنك هنا، صائر من حال الى حال، صنعتك تحت سمائها، ومزجتك بطينها ومائها، واطعمتك نباتها ودوابها، انت قمة

الهـرم التي لا تهـوي، كجلمودٍ على هام الدنيـا وكل شيء تحته، وكنجم تسير وراءه النجوم، وشمس تمسك حولها الكواكب، يا صائرا الى امر كانَ وسيكـون، كتبته الايادي قبلـك على قعر القبة العظيمـة، ان تكون فلا راد لكينونتـك، وان تحيـا فلا مميت لك الا حين تريد الحـروف، وحيثما كتبت نهايتك، متى وأين، الا ان حروفها كتبت ان يحيا نسلك، وينتشر على ظهر هَفِينـا كجيوش النمل الاحمر، على ان يكـون بينهم ذكور يمدونها بخلق ذكـوري جديد، ماؤك الـذي تحمله بيضتاك مداد يخـط على ظهر الجزيرة بحبر من بشر، فلتكن بشرا اولا، وذكرا واحدا، ليمتد نسلك هنا كنجوم في الارحام، ونيران في افاق البحار البعيدة.. "..

بـدأ توقيت الغشاوة مبكرا هـذا اليوم، لقد بدأ راموس يفقد السيطرة على جفنيـه مع انتهاء حديث المرأة الاولى، وبدأ خيط صداع يمتد كقطرة مـاء طويلـة على جانبي راسـه، كان حاجباه قد تقطبـا وهو يستمع الى صفـير الرياح الداخلة الى القاعة مختلطا بصوت المرأة الثانية، حين بدأت تتكلم بصوت اعلى من التي قبلها...

"فوقـك الالهة العظيمة، فـلا تفكر في غيرها، ولا تطمـح لمجاراتها، هي التي صبت الماء من اعالي السماء الى تراب الارض لتكون طينا، ثم سوتك بيدهـا لتكون صورتك، ثم هي الان تنظر الى تعميـدك، اياك ان تنظر لها نظرة متكبر، فسترمي بك كثوبٍ رثٍ الى اعماق هاوية هيلا ان هي غضبت، و ستطعنك في حياتك طعنات لن تقوم منها ابدا، احفظ صدقك معها، واتكـئ علـى ذراعها يقظا او نائمـا، وقل لها ما بصـدرك، فيدرك بصرك تلـك الحروف في قعر القبة، لتختار الطريق المنار لك عليها بأمر الالهة، ولا تحلف باسمهـا بالباطل، لان ذكرها للشكر فحسـب، لا للتجارة واللهو، احفـظ ما تقوله لك حتـى يتشبع قلبك فيه، وتعلم وصاياها كأبن لها، ليشـع نورها بصدرك كما تشـع الشمس بعد كسوفهـا، وكما يفيض

البدر بالنور في سماء كفرس سوداء بشعرٍ طويل. انت صنيعتها الذي لا تتنازل هي عنه..."

كان الصداع يشتد على رأس راموس حتى كاد يفقده تركيزه مع كلام السيدات. لكنه حاول الاستماع بكل طاقته ليفهم اهمية التعميد لهذا اليوم. اشتد الرعد في الخارج كما لم يحدث من قبل. وكادت الستائر الشفافة تقتلع من اماكنها في محيط باحة القبة. لم يكن هناك سوى صوت السماء وعزف اوتار حناجر السيدات. ولم يكن راموس ليستطيع فتح عينيه بسبب الصداع وصوت الرعد. لقد اشتد كل شيء. ويبدو ان ايام التعميد السابقة كانت اسهل بكثير من هذا اليوم. يوم تعميده كملك على الجزيرة. وتعليمه على نفسه. بعد ان علموه على خمس مفردات سابقة. "ايها اللا شيء..."، قالت الثالثة. "ما يأتيك في راسك ما يؤلمك هو كينونة عقلك الذي بدأ يتفتق على الارض . ذلك الصندوق المملوء دما وماءا لن ينفك يرافقك. زاحف بحجمه وفهمه كما تزحف الطحالب على الاصائص. لا حدود تحده. ولا واقع يمنع خياله. لن تكون لك حجة بعده حينما يكون لك. فهو الذي سيخبرك اي الطريقين تسلك. فخالفه وانت مذنب. واسمع له فهو ناصحك. اللا شيء. ستكون سيدا على هذه الارض. لك رأس وجسد. اعين ولسان. يدان ورجلان. ولك سرة وسط كل هذا لتعلمك بأن قبلك كان خلق. وان بعدك سيكون خلق. فلست سوى حلقةٍ في سلسلةٍ ما تريد الالهة ان تخلقه وتفنيه. فليكن مرورك بدورك بما لا يغضبها ولا يؤذي من خلقها احدا"...

ضاقت انفاس راموس. وبدأ يتنفس بشكلٍ اسرع. فيما عرق جبينه كاسفنجةٍ مبللة. وارتفع لسانه كقمة زهرية يابسة. اشتد برد جسمه وزاد عرقه. فيما كان الصداع يدوس على جمجمته اكثر. وكادت ركبتاه ان تصدمان بعضهما بعضا من شدة الارتجاف. كان راموس يتعب اكثر.

وكانت السماء تصب وهجها وهديرها بكلِّ شدتها، تعالى صوت الساقي بأنفاسه، وتحدثت السيدة مارلين:

" حين ينتهي تعميدك، ويأتي يوم تنصيبك، ستحيا كل ذكور الحيوانات على ما ستحيا عليه، وستتبع بقايا خطواتك الى ما تريد، فان عمرت هذه الارض ستعمرها من بعدك، وتكون طيعةً لمن يضع يده عليها، وان كنت عليها ظالما مخربا، ستخرج عن طوعك، وتكون وحوشا لاهثة وراء بعضها، انت محور الدنيا من جديد، انسانٌ معمدٌ من لا شيء، تحت قبة كمدار الكون يحيطها فضاء لا متناه، ايتها الكتلة الطينية المعجونة بماء مقدس، تراصي لتكوني انسانا جديدا، كما ارادت له الحكمة التي ارته سراجا من زيت ونور..."

وتوالت النسوة على تعميد راموس في يومه السادس، كان كأنه يخلق من جديد، بل بدأ يشعر انه لم يكن سوى قبضةٍ من تراب كانت ذراته تائهة في فضاء الكون الشاسع، وقد اجتمعت تحت قبةٍ مثيرةٍ للتساؤلات اللا منتهية، لتعجن بماء هائل القدسية، وتنفخ عليها رفعةٌ من نور، ولتجلبها من فضاءات النسيان الى الكينونة الكبرى، ولتمضغ بكف من هواء فيكون كما بدأ يكون، شعر بشعاعٍ عشوائي الاتجاهات في رأسه، يضج حروفاً وكلمات، وتتصادم ذراته كأسراب جراد هاربة، كل شيء يجري بشكلٍ غريب، نور وظلام، صفاءٌ ودخان، ماء وطين، حتى عيناه اغلقتا كما لو كانتا قطع حجارة تتجمع سويا، بدأ يشعر بفقدان نفسه كمن يهوي الى قعر لا منته، فاض جسدهُ في فضاءٍ لم يعرف له شكلا، واحس بنفسه كنبضةٍ من الم تسري في جسدٍ هائل لا يعرفه، الكلمات لازالت تنساب جاريةً الى اذنيه، تلاشى صوت الرعد في مسمعه وبقيت هي، كل كلمة منهن تجري الى قلبه كأنها تحقن بدمه حقنا، ميز بصعوبةٍ بالغة صوت السيدة السابعة، التي كانت تقول له: "بعد كل فخرك وكبريائك، كل

علمك وسطوتك، ستؤول الى تحت هذه القبة من جديد، بجسدٍ بارد ومتيبس، لا يقوى على تحريك اصبع من اصابعه، هاويا الى عالمٍ من نورٍ او ظلام، تاركا الطين الذي خلقت منه يتحول الى تراب من جديد، متحولا الى نبضة من نور في مساحة لا متناهية، فاجعل مسيرتك على ارض الجزيرة تستحق ان تذهب الى تلك المساحة وانت مطمئن، ايها اللا شيء، ستكون شيئا، ولن تعود كما كنت من قبل ابدا ..."

مع حروفها الاخيرة، تلاشى عالم راموس.

الفصل 24

ضيـــاع ولا ذاكرة، وصفير متواصل بلا انقطاع، ظـــلام داكن للغاية، وهواء يتســـرب الى الرئة كما يتسرب من ثقب ابـــرة، غرق بلا ماء، وحلقٌ محترق بلا نـــار، شعورٌ باللا امان، حتى كأن جيشا من الغزاة قد دخلوا الى داخل راسه وطوقـــوا دماغه، احساس باللا وزن، وسقوطٌ لا منتـــه، كان هناك بخار في محيطـــه، وذرات لا تُرى في كلِّ مكان، وميض ملون هنا وهناك، سريع لغاية ان لا نظـــر كـــي يتلقفه، احساس باللا احساس، وفراغ تـــام في كل مكان، الجاذبيـــة ليست هناك، والطفو والسقوط في آن يمتزجان الى اللا نهاية، ثم وكقطرةٍ قطرة، تسللت قطرات من الخشية الى ما احس بانه شيء ينبض في صـــدره، تحولت الخشية الى خوف بسيط، لم يعـــرف ماهيته ولا معناه، كل مـــا شعر بـــه كان ان امرا تكون في صدره بشكل يخشاه، كأن الخشية والخـــوف همـــا اول ما بدأ يتعلمه، تطـــور ذلك الشعور، قطـــرةً بعد قطرة، وتزايد هناك، في صدره ذاك، حتى تحول الى خوفٍ اكبر، تحولت تلك القطرات الى نهـــر صغير من الخـــوف، تزايد ماؤه، حتى بدأ يشعـــر بأمر لم يألفه، انه يهتز، يرتعد، و خوفه يتحول الى رعبٍ بعد ان كان مجرد خشية، رعب كبير، بل هائل ولا يطاق، كان يرى نفسه تهوي الى الاسفل والامام في ذات الوقت، الى الاسفـــل حيث لا جاذبية هنـــاك، والى الامام كمن سيرى نهاية للمجرة المظلمـــة التي هو فيها، ويبـــزغ شيء لا يعرفه من هناك، من تلك النهاية، رعـــب كبير، ارتعد اكثر، وضاق عليه كونه المظلم اكثر وأكثر، هناك امر ما سيحدث، امر لن يكون سوى .. خيط افقي من النور ..

وانفجر راموس من سباته صارخا..

صرخ بشدةٍ هزت برادوزا بأكمله، اندفعت الستائر الى الخارج بعنف، وانفجر مـــاء ازرقٌ كثيفٍ مـــن جوفه الى الهواء، واختضت الجـــدران وانبثق نور هائل

من ثقب القبة، شهــق ساحبا كل هواء الدنيا، وصرخ من جديد، انفجرت القاعة فوضى وصوتا، كل ما فيها من ستائرٍ وابواب راحت تنفجر حركةً وصريــرا، بل كادت الاعمدة الرخامية الكبيرة للقصر ان تنفطر، والزجاج ان يتحطــم، حام الصوت بين جدران القاعــة كإعصارٍ من الفوضى المرعبة، وجلست والنسوة السبعة علــى الارض ممسكة بها ان لا تميد، ولاح ضوء الشمس الوافر الوالج من القبة نحو عينيه المنفتحتين بخيط ضئيل..

وشيئــاً فشيئــاً، تلاشى صــوت راموس، وهــدأت تلك الجلبــة التي كانت تعصــف بالمــكان، وفتح عينيــه، كل مــا رآه امامه كان القبــة وحروفها المتناثــرة عليها، ومــا ان توضحت رؤيته ببطء، حتــى تشكلت امامه اولى كلماتها التي قرأها في حياته..

(كُنْ).

الفصل 25

صَمت كل شيء. وسرح راموس ناظرا الى القبة. تلألأت حروفها بما يبدو كماء ذهب كتبت منه. شعاع الشمس ينساب بهدوء. ولا صوت من حوله. لا صوته. ولا صوت تلاطم الابواب او حفيف الستائر. ولا جلبة اثاث ولا ريح. هدوء مطبقٌ فقط. شهق الهواء الى رئتيه. وشعر لأول مرةٍ بجسمه واعصابه. التفت الى يمينه. فرأى كل ما كان هناك كأنه يراه للمرة الأولى. العرش العظيم وهو يجلس فوق سبع درجات من الارض ويتمشى حول كعبه طاووسان. وساعة خشبية قديمة تعلوه وقد علقت على الجدار. استولى هدوءها على الهدوء في رأسه. وتسمرت عيناه عليها. قبل ان يأتي صوت السيدة مارلين قائلا: "اهلا بك ايها الشيء. انت الانسان الاول الان!".

الفصل 26

وقــف راموس ناظرا الى كل ما هو امامه، هدوء كبير في البداية، ما لبث ان اخـتُرقَ بصوت جلبة من خلفــه كأنها دخلت دفعةً واحدة، وعندما التفت الى بوابة القاعة، رأى حشوداً كبيرة من الفتيات وقد رافقتهم حشود اكبر من الحيوانــات والزواحف، فيما علاهم سديمٌ من الطيــور الفائقة الروعة، دخلــوا جميعــا ووقفــوا في القاعة التــي احاطت بجميعهــم لمساحتها الكبيرة، لم يكن راموس يشعر بدوار او تعب، وقف على قدميه بعد معاناة الكينونة التي عاشها في الليلة الماضية، هو لا يتذكر شيئا حاليا مما كان قــد جرى كتفاصيل، بل كانت هناك غيمــة افكار تقول له ان الامس كان سيئا متعبا، ويُشعر بالغثيان، واقف امام كل ما هو امامه من اشجار زينة داخــل القاعة الكبــيرة وحيواناتٍ متعددة الاصناف دخلــت لتوها، ونسوة ملونــات بكل الوان البشــرة التي علــى الجزيرة، وتحت طيــورٍ راحت تنشد صفــيرا ذو لحن عجيب قرب سقــف القاعة وقعر قبتهــا، وامام كل ذلك، وقفــت النسوة السبعــة بجلابيبهن الداكنة، ثم بــدا على الجميع هدوء مخيــف بدأ يتكون شيئا فشيئا، حتى كسره نطق السيدة مارلين بصوت خافت: "لقد قضيــت الليلة الماضية بطولها وانت تكون شيئا، اليوم هو الجمعــة، سابع ايامك هنا، ويوم جلوسك انسانــاً وملكاً على هذه الارض، تم تعميــدك يدا للآلهة عليها، فلتحكم حتى تريد الحروف ان تراك بدونها، او تراهــا بدونك"، ثم ومن بين الموجودين، تقدمت ايفا نحوه برداءٍ ابيض من حرير، ارتداه منهياً عريه، وما ان ارتداه، حتى تفاجأ بإشارة النسوةِ السبعة له بالمرور وارتقاء الدرجــات السبعة نحو العرش، وبعد تردد قصير، تحركت قدمه اليمنى تخطو الى الامام، مشى راموس امام المخلوقات على جانبيه متبوعــا بايفا، وضع قدمه على الدرجة الاولى، وارتقى متبعا اياها باعتلاء

الثانيــة، كانت كل الاعين تنظــر اليه، وتشرئب تلك الاعنــاق كلما ارتقى صاعدا الى درجة أخرى نحوه، كان يرتقي الدرجات السبعة والعرش الكبير مــن امامه يــزداد هيبة وحجما، حتى وصل الى الدرجــة السابعة، استدار مــن عليها، ونظر الى عيني السيدة مارلين في الاسفل، فأغمضت عينيها لــه مشيرة إليه بالجلوس، انثنت ركبتاه، وجلــس راموس للمرة الاولى على عرش هَفِينا الكبير، ومن دون انذار مسبق، هبط كل من في القاعة الكبرى ساجــدا امامه وهو على عرشه، بشرا وحيوانات، حتى الطيور حطت على الارض، حتى النسوة السبعة بأنفسهن جثين ساجدات، بل حتى ايفا، وان كانت اخر مــن فعل، لكنها سجدت كالجميع، ووجــد ملك هَفِينا نفسه جالسا على عرشه، امام بحر من الظهور المنحنية...

خيم الهدوء على كل شيء تحت قبة برادوزا الشاهقة، لم يسمع اي شيء ابــدا، صوتٌ واحد خــرق ذلك الصمت كسهم بنصــلٍ من قصب، صوت ميــل الثواني في الساعة الخشبية، لقد تحرك من مكانه معلنا بدء حركته من جديد، عادّاً الثانية الاولى بعد الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة، وبذا، بدأ عهدُ راموس ملكا على هَفِينا.

مــع الثــواني الأولى الساعــة الخشبية التــي اعلنت بدء عهــد راموس، ثار البركان هيلا طافحا بموج حممه المنصهرة لما حدث، وانفجرت بضع حمم بركانيــة عاليا وعاودت الهبوط، دقائقٌ من التوتر انتهت بعد ان راق البركانُ مــن جديد، اما ذكور الحيوانات – مــا تبقت واحدا من كل صنف- وفي تلك الساعــة نفسهــا ، قد علت اصواتها المختلفــة ، واهتاجت من دون وعي، وسكنــت جميعا لاحقا، لقد كان تنصيب راموس بعد تعميده في ايامه الستة قبل يوم جلوسه السابع حدثا كبيرا للجزيرة، بعث فيها طاقةٌ من روح، واهــاج بهــا كل سكونها، الطقس وحــده كان يستحيل الى ربيع لم تعشه هَفِينا من قبل، لقد مرت نسمة عظيمة من الراحة والهدوء على

الجزيرة بعد هدوء ذكور الحيوانات وحمم هيلّا، تحول الطقس مع تلك الموجة الى نسيم رقيق تميل معه الارواح، وارتعشت زقزقة عصافير الجزيرة بالحان لم تكن قد اصدرتها من قبل. كانت دوراثا في فناء منزلها حين شاهدت سربا من طيورٍ لم ترها من قبل، تفوح لحنا غريبا تذوب الاذان لروعته، طيور لم تمر بالجزيرة من قبل، بأذيال خضر وزرق، ورؤوس برتقالية صغيرة، شعرت الفتاة بان الجزيرة اصبحت ترى جمالا، على الرغم من جمالها السابق كله ، فانه لم يمر بها من قبل، لقد رأت موجةً لم تعرف كيف تسميها تفيض روعة، بدأت تمر كنسمة فجرية على الجزيرة، اذ مرت موجة من غيوم تبدو زهرية اللون، حجبت بعضا من قساوة نور الشمس وصراحته، كانت دوراثا تنظر الى المشهد والفرح في داخلها يتصاعد طافحا، شعرت بان هناك نسخة صغيرة منها في صدرها بدأت تتقافز فرحا لما تراه، تغير لون السماء الى الوان فائقة الروعة، فخرجت من فناء المنزل الى خارجه، وصدمت لما بدأت تراه، لقد ازداد لون العشب والاشجار اخضرارا كمن يراها بعد موجة امطار غسلت ما عليها من غبار، ووضحت بالوان رائعة ثمارها المتدلية على غصونها، لم تشعر بالجو، فقد كان عذبا للغاية، حتى سحب النفس والشهيق صار اسهل بوجود هواء عذب مثل الذي كان يمر على هَفِينا قادما من مكان ما، اغمضت دوراثا عينيها، وراحت تستمع الى اصوات الطيور من فوقها، ممزوجا بصوت مد البحر الرائح الغادي على سواحل الجزيرة من الجهات كلّها، كل مد من جهة يتناغم مع الاخر من الجهة الاخرى، ثم تناهى الى اذنيها صوت انثيال تلك الساقية المارة بالحقل المقابل لبيتها، فمشت نحوها بقدمين حافيتين، لم تطآ ابدا ما يؤلمانها، فالعشب اصبح اكثر نعومة، والتراب صار اكثر راحة، وقفت امام الساقية ونظرت اليها، كان قلبها يخفق تعجبا وفرحا، لقد بان الحصى الذي في قعر الساقية لعذوبة مائها، واصبح ذلك الماء مرآةً شديدة

الوضـــوح لنقاوته. اما ما اثـار التعجب اكثر في نفسها فقـد كان رؤيتها لتلـك الاسماك الصغـيرة العجيبة وهي تتسابـق في الساقية في موجة لعـب وفرح هي الاخرى. لم تر دوراثا كهذا السمك من قبل في حياتها ابدا. رغم ان الجزيـرة جربت مختلف انواعه لكونها وسط عالم تلك المخلوقات الازرق. كانت هناك اسماك بيضاء واخرى زرق. بعضها يبدو كلآليء مائية. واخرى بـدت كأقواس قزح له اربعة زعانف. كان العالم الذي راته تحت الماء اروع مشهدٍ يمكـن ان يراه احد. تقدمت اكثر نحو الساقية. وجلست على جرفهـا. ثم انزلت قدميهـا الغضتين في مائها. ولم تـر ان سمكا قد نفر خوفا من حركـة الماء او تعكيره. بل بقي كل شيء على حاله. حتى التراب الـذي علق بقدميها لم يلـوث الماء حين لامسـه. كان العالم يتغير كاملا امامهـا. حتـى قوانينه المعتادة. "شيء ما يصيب الجزيـرة. وليته يدوم الى الابـد". قالت في نفسها. وتمنت ان تحصل على خلخال من الذهب ليجمل قدمها وهي تعبث بها في مياه الساقية. كيف سيكون بريق ذلك الاصفرار ان كان هناك تحت ذلك الماء وبين تلك الاسماء الملونة بأروع الالوان. ابتسمت لوهلة. ثم قالت في نفسها: "حسنا. انها فقط امنية!"

داخـل منـزل باربوسا الحسنـاء. كان يجري امرٌ اغرب مما يمكـن ان تتصوره عيناها الحوراوان. ففيما كانت تتكيء على سريرها وقد بان شعرها من تحت شالهـا الاسود الحزين. تجلى من امامهـا نور يشبه الناس. هيئة من ضياء اصاب نوره زوايا غرفتها الكئيبة. كان يدخل عليها بابتسامة ساحرة. نور شخصٍ لطالما حملها على ذراعيه. واجلسها على ركبته وهو يحتضنها خشيةً سقوطها. كان ابوها قد دخل الى غرفتها بجسم مضيء. نهضت اليـه راكلةً السرير من تحتها. واحتضنت ذلـك النور شاعرةً بلحمه ودمه مـن بين ذراعيها. لم تكن محتضنةً لنورٍ فحسـب. بل حتى رائحة والدها الـذي رحل ليلة العاصفة كانت تشمها من جسمه الذي تحتضنه. بكت

علـــى صـدره فرحـــا لعـودته، وان كـانـــت بهـذه الـهيـئة الـتـــي زادت من حـبـها لـــه، ليـدخـل مـــن بعـده اخـوها، وامـهـــا، عـلـى ذات الـهيـئة، ثـــم يـدخـل زوجـهـا الـذي تـعـشـقـه، كـانـــت كـل تـلك الـصـور امـامـهـا، تـكـاد أن تـطـيرهـا فـرحـا وحـبـا، لـــذا، فـقـد اخـبـرهـا زوجـهـا انـــه سـيـاتـي في اي وقـت تـريـد، عـلـى هـيـئة الـنـور الـذي احـبـــت، والـتـي تـفـيـض عـطـرا وبـهـاء وغـبـطـة، عـاشـت بـاربـوسـا اجـمـل لـحـظـاتـهـا مع عـائـلـتـهـا الـتـي فـقـدت.

الفصل 27

داخل كيوب باترس (مكعب باترس) وسط هفينا، موقع العبادة المركزي في الجزيرة، ذلك المبنى المكعب الاسود الذي تعلوه نصف قبة رخامية بيضاء كبيرة، و تحيط به سبع اشجار كبيرة من السدر وعشرات اشجار التين والزيتون، و تمتد من حوله دائرة من الارضية الصخرية البيضاء محاطةً بحائط مقدس من الحجر يحمل نقوشا ما، فيبدو كأنه مركز العالم كله، لا مركز الجزيرة، من ذلك المكان، شع نور ابيضٌ مائل إلى الزرقة في تلك اللحظات، لحظات تولي راموس العرش فجر اليوم، بعد ستة ايام من التعميد المهلك الذي تعرض إليه ويوم التعميد، متحولا من اللاشيء الى الشيء كله على رأس خلائق الجزيرة جميعا كمنارة تشهق على مبنى من الزجاج الازرق، خرج النور من نوافذ كيوب باترس الصغيرة جدا، محولا اياه الى ماسةٍ سوداء تشع بنور خاطف للابصار، فيما كانت النوافذ الاخرى في القبة التي تعلو ذلك المبنى المربع ترسل انوارها كذلك الى اصقاع الجزيرة كلها، فالمبنى واقعٌ على ربوة وسط الجزيرة، ويعلو ببنيانه على اكواخ الناس كلها هناك، بناية برادوزا وحدها هي التي تشهق اعلى منه ببنائها وقبتها الهائلة، لم يدخل احد منذ اعوام خلت، لا متناهية الى مكعب باترس، الهفنيون يقدسون ارضه ولا يمشون الى داخله ابدا، لكنهم يصلون من حوله في باحته الواسعة ويطلبون النذور، يجلسون على ركبهم ويسجدون احيانا على جباههم في تلك الحلقة الرخامية التي تحيط بها، او يضعون راحات كفوفهم على بعضها وينحنون امامها طالبين ما في صدورهم، شع النور من هناك في ذلك الصباح، منبثقا من تلك النوافذ العليا والسفلى، متجها الى كل مكان، ومصيبا كل خدش في جبل، وكل ايكة اغصان متشابكة في مزرعة هفينية، ومصيبا بأحد

اشعته الثاقبة احدى نوافذ قبة قصر برادوزا الهائل، فانعكس النور الداخل من النافذة على رخام القبة الكبيرة، مرتداً من ركن الى ركن، ومن زاوية الى زاوية، فانيرت برادوزا بنور لم تره من قبل، نور كشف عن الكثير مما لم تره الاعين داخل ذلك المكان. كان راموس لا يزال على عرشه، وكانت الساعة الخشبية تشير الى السابعة واربعة عشرة دقيقة، وكانت النسوة والمخلوقات لا تزال في تلك القاعة الكبيرة تحيي ملك الجزيرة الجديد، فيما النسوة السبعة مبتسمات لنجاح تعميد راموس ملكا على الجزيرة. وحين اصاب ذلك الشعاع القادم من نوافذ مكعب باترس نافذة برادوزا، و أنير المكان بذلك النور الخاطف، انذهلت العيون ايما انذهال، وانفتحت الافواه بأقصى صدمة، لقد اصبحت برادوزا اجمل بقعة في الوجود الان على الرغم من جمالها السابق، وازيح ستارٌ عن ذهب وياقوت كانت الاعمدة الرخامية تتكون منه، اذ لم يظهره الا ذلك النور الغريب الرائع، لقد كان قصر برادوزا مصنوعا من الاحجار والذهب، والرخام والفضة، كما لو انه في باطن الارض بكل معادنها النادرة، او مبنيا داخل ثقبٍ في نيزك تائه في فضاءات الكون الشاسعة، حتى تلك الببغاوات، النعامات والطواويس، بدت منذهلة مما كان يجري، وشعرت السيدة مارلين براحة واطمئنان عظيمين، لقد أمدت الالهة هفينا وقصرها برادوزا ببركاتها اخيرا.

الفصل 28

تلك هي الجمعة الاولى بعد تنصيب راموس. لقد تغير كل شيء على الجزيرة. اختفى كل اثر لاي عفنٍ او صدأ او رائحة مزعجة او صوت مؤذ. اي ضوء مزعج او برد او حر. تلك النسمة الغريبة التي مرت على هفينا غيرت كل شيء حتى سكان الجزيرة. شعروا بان محاصيلهم اصبحت تكفيهم سواء زرعوا ام لا. لم يعد الزاد ينضب. ولم تعد الحيوانات تعتدي على بعضها. فلم تصبح الخراف محروسةً بالكلاب كي لا يسرقها احد او ينهشها ذئب. الطيور تحط اينما شاءت دون ان تُصادَ او تستهدف. الماء رقراق. باردٌ وعذب. والكرومُ بدأت تتفتق كغيمةٍ فوق البساتين. الهواء ارق مما كان عليه رغم انه هواء هفينا الرائع. كانت الجزيرة تتحول الى عالم مثالي للغاية. بل شيء مما كانت الجدات تذكره للأحفاد عن الجنة التي اعدتها الالهة لمن يعمل الخير في حياته ويساعد الناس. ذلك الذي يحترم الكبير ويعطف على من هو اصغر منه. من يحب اباه وامه ولا يفتعل المشكلات. ومن يذهب لنومه باكرا ليفيق باكرا...

في قصر برادوزا وتحت القبة الكبيرة. كان راموس بلا ماضٍ يستعيده. لقد نسي كل شيء عن امسه واصبح رأسه اخف بكثير مما كان عليه. لم يعد ذلك الساقي الذي يحمل دلاء المياه من بيتٍ الى بيت. صاعدا هابطا من تلة عين الماء. لم تعد ذاكرته تستعيد له ذلك اطلاقا. فهو يعيش الان في قصر برادوزا اللامتناهي المساحة والروعة. حيث اخضوضرت في القصر منذ ضرب شعاع مكعب باترس قبته اشجارٌ من ثمر رأى بعضا منه من قبل واخر لم يره. دانيات من يده حيثما كان. فيما كانت النسوة ذوات البشرة اللامعة يطفن حوله حيثما سار. بملابس من مخملٍ احمر وابيض. نسوةٌ اعدتهن السيدة مارلين ليكنَّ في خدمته. كن لا يلمسنه

ابدا. بل يخدمن وجوده فحسب. يغسلن جسمه ويقصصن له القصص قبل النوم. حتى ان احداهن سردت له ذات ليلة قصة ايسوس الذي عاش وحده في جزيرة من نساء في مرحلة من مراحل رحلته الملحمية الطويلة. واخبرته انه لم يكن ذا حظ وافرٍ كمثله. اذ فرّ من قبضة ملكتهن هائما على وجهه. فيما يعيش هو بكل ما للسعادة من معنى في قصر برادوزا. ملكا وحاكما اوحدا وانسانا سعيدا على هفينا الرائعة. في تلك الليلة. نام راموس عميقا. وحلم بيد الالهة تداعب مقدمة رأسه. وتصب ماءا من ذهب على ظهره وكتفيه. وسمعها تقول له: "فلتعش ابدا ايها الشيء!..." لم يعد راموس ذلك "اللا شيء". بل الشيء كله. وجلّ اهتمام كل من على الجزيرة. وفي ليلة تالية. ولجت السيدة مارلين داخلةً الى مخدعه. واخبرته بأن عليه الشروع بمضاجعة نسوة الجزيرة وبدء التناسل. وقالت له انها اعدت اجمل النساء لسريره. اذ انها ابعدت النسوة الكهلات والعجائز عن مخدعه. واصبح واجبهن ابداء الحكمة لساكناتها والتحدث معهن لصنع وعي اكبر. فيما جعلت من الفتيات الصغيرات فريقا يطفن حوله بجدائلهن الملونة وملابسهن الحريرية كفراشات ربيع زاخر بالتويجات والرحيق. وصار واجبهن سقايته واطعامه وغسله واعداد مخدعه. فيما وضعت كل جميلات هفينا في فريق عظيم مع ضوابط صارمة في الملبس والتصرف. ليكنَّ شريكاته في ذلك السرير الذي سيعيد لهفينا ذكورتها البشرية من جديد. لم يهتم راموس بكل هذا. اذ كان يسأل عن امرأة واحدة. كان يسأل عن ايفا. اكثر من اصبح قلبه شغوفا بها. ربما لأنه جربها. لكنه كان قد جرب دوراثا ايضا. وسأل نفسه لم بقيت ايفا بداخله واصبح الان بحاجة لأنفاسها وحضنها اكثر. اخبرته السيدة مارلين بانها ستكون اقربهن منه. وتهلل وجهه فرحا. وعندما غادرت هي غرفته. وبعد وقت قصير وبالفعل. دخلت ايفا على مخدعه بصورة اذهلته ايما ذهول.

كانت ككائنٍ من مرمر للمعان جسمها، عاريةً وصاخبة الجمال، متوردةً كاقحوانة بدا عليها بعض الندى، متوهجة الخدين ورائعة الشفاه. دخلت ايفا التي انتظرها منذ ايام ماقبل التعميد، واحتلت نصف سريره، مانحةً اياه مضاجعةً لن تتكرر وفق اعتقاده، لقد كانت موجة الجمال التي عصفت بهفينا ماسة بايفا ايضا، جاعلةً اياها اجمل من ذي قبل، واكثر شغفا به، حتى غفا الى جانبها في قمة راحته، في ذلك السرير الذي تتدلى من فوقه اجمل الثمار واطيبها، استلقى على ظهره ناظرا الى عنقود عنبٍ ابيض لم ير مثله من قبل، وقبل ان يغمض عينيه، ادرك مع نفسه، انه لنْ يُرَد له طلب بعد الان، وانه بالفعل، قد اصبح سيد الجزيرة والحاصل فيها على ما يشاء، وان ايفا ستكون الاقرب له كما اراد، فيما تعج الجزيرة جذلى من امامه بنساء يحلمنَ بساعةٍ معه، وفيما تتشابك الاغصان من فوقه بما تحمل من ثمار، على ظهر تلك الجزيرة التي اصبح كل ما فيها رائعا، سماؤها وماؤها وارضها، بل حتى سكانها، وهو الملك في وسط قصر بردوزا الهائل..

اغمض عينيه لينام، وبقيت ايفا مستلقية الى جانبه...

حاملةً نطفته الاولى.

الفصل 29

مضى واحد وعشرون يوما على البيضات الأولى التي وضعتها دجاجات بيت راموس بعد تناسلها مع الديك الوحيد في الجزيرة والذي بقي في فناء الكوخ العتيق بعد عاصفة تلك الليلة. لقد تناسلت تلك الدجاجات بعد يوم جلوس راموس على العرش، اي بعد التعميد الذي ينبغي انه من سيعيد لهفينا ذكورتها من جديد. حظيت الدجاجات وذلك الديك باهتمام كبير من عجوزٍ كهلة عينتها السيدة مارلين لتدير شؤون تلك الطيور، اذ ان فترة التعرف على اول الذكور الجدد من الحيوانات على الجزيرة ستكون طويلة ان تم انتظار الخيول مثلا. لذا فمتابعة الدجاج ستكون اقصر لادراك ما بجعبة بيضه. اليوم ستفقس تلك البيضات معلنة عما سيكون عليه جنس ما بداخلها من صيصان. جلست العجوز ذات العصا الغليظة المكلفة بمتابعة انجاب وتبييض ذكور الحيوانات على الجزيرة وهي تراقب تلك البيضات الموضوعة على فرش من التبن. وبدأت اولى البيضات تتشقق وهي تتلقى من داخلها نقرات اول مخلوق سيولد بعد العاصفة والتعميد. كانت الآمال تنعقد على ولادة ذكر جديد. ان حدث، فان كل الحيوانات على الجزيرة ستنعم بالذكور ايضا لزوال السبب الغامض الذي محى الذكور السابقين مبقيا على فرد واحد من كل نوع..

اطل الصوص الاول براسه تحت اشعة شمس ذلك اليوم. كانت المرأة العجوز تنظر اليه وهو يخرج من قشر بيضته. فيما بقيت ست بيضات حوله بانتظار الانكسار والافصاح عما بداخلها من اجناس صيصان تنتظر الخروج الى الحياة على هفينا. خطا الصوص الصغير خارج القشرة بصعوبة محاولا العثور على امه. الا ان يد العجوز امسكت به ورفعته

برقه، نظرت الى منقاره بعينين طرفاهما مجعدان، ثم اعادته الى الارض.. ساعات قليلة، وفقست كل البيضات امام عينيها، معلنة ان كل الصيصان الناجمة كانت اناثا.

الفصل 30

دوى صوت صفيرٍ في قرن كركدن معلنا وصول السفينة "آسك" الى ميناء هفينا الكبير. لقد جاء موعد رسوها هنا بعد انقضاء شهرٍ على اخر زيارة لها. لم تكن اقدام النساء كما هي كل مرة تندفع سريعاً وبشغف نحو الميناء لاستقبال الاسكيين الذين يحملون طلباتهن جاهزةً للتسليم. كانت النسوة تسير بشكل هادئٍ اليوم الى ذلك الميناء في جموع متفرقةٍ راسخة الخطى. مشين على العشب المؤدي الى منصة الميناء وقد شاهدن السفينة آسك وهي ترسو هناك. رافعة علم اصحابها المتألف من راية بيضاء وقد رسم عليها بالأسود كفين مرفوعان الى السماء. توقفت ملقيةً بمرساتها الكبيرة في مياه شاطئ الجزيرة. ورمى الاسكيون سلماً خشبيا من اعلاها الى الارض. واطلوا من هناك وعليهم امارات الشغف لوطء ارض هفينا بعد تلك الغيبة. لقد اعتادت النسوة على رؤية الاسكيين ببشرتهم الداكنة وما عليها من انياب وبقايا عظام الحيوانات يزينون بها رقابهم وصدورهم ولون الدم القاني يصبغ ثيابهم. كما اعتدن على شم رائحة بقايا الحيوانات تلك ملتصقةً بتلك الاجسام. من الممكن ان يكون هذا اسوأ ما في زيارات السفينة آسك ومن عليها. لكن ما رأته النسوةُ اليوم كان مختلفاً. فقد اطل البحارة هذه المرة ووجوههم اقل دكنةً. كانوا يرتدون ثيابا بيضا تشبه الى حد ما بياض رايتهم التي يرفعونها على السفينة. ولم يَشِمُوا او يضعوا أياً من بقايا الحيوانات على جلودهم او اعناقهم او ظهورهم. كان الاسكيون يبدون أشد نظافة وثيابا هذه المرة. ومظهرهم يبعث على الانفتاح كما يبعث عليه عطر فتحت زجاجته للمرة الاولى . ترجل بعض الرجال من ظهر السفينة ووطئوا الارض. نزلوا منها في نسقٍ رائع. كانت النسوة تقف عند الميناء وقفة

صـــفٍ واحد. فانبرى البحارة ماشين في ذلك النسق. ليركع كل منهم امام امرأة هفينية. وكانت دوراثا تقف هناك في صف النسوة. ناظرة بعجب الى تصرف الاسكي الـــذي ركع امامها. بما ينافي ماعرفته عن الاسكيين الذين يشـــاع عنهم بانهم بحارة متمرسون غـــير مؤذين لكنهم قساة التعامل بعض الشـــيء. اليوم يركع بحارٌ من الاسكيين عنـــد قدميها. ومثله عند قدمي كل امرأةٍ هفينية وقفت على ميناء الجزيرة باستقبال السفينة. لم تكن دوراثا قد طلبت شيئا من الاسكيين في زيارتهم السابقة كي يجلبوه لها اليوم. لكنها تفاجأت. بان الاسكي الجالس امامها قد جلب لها غرضا لم تطلبه. فتح يده امامها. فبدا لها خلخال من الذهب. شبيه جدا بالذي تمنته لقدمها وهي تداعب الماء بها في ذلك النهر الصغير. عندما شاهدت تلـــك الاسماك الجميلة والطيور الملونة. التقطت ذلك الخلخال بيدها. وقد ادركت ان مجرد التمني على هفينا اصبح واقعا يتحقق.

الفصل 31

داخل قصر برادوزا، وعلى عرشه العالي والمرصع بأحجارٍ لا توجد الا عليه، كان راموس جالسا وعلى راسه تاج نقشت عليه حروف القبة الهائلة جميعها بذات العشوائية، كان يغمض عينيه مستسلما إلى صفاء ذهن رهيب، متمتعا برونق السكينة، شاعراً بانشراح صدره كانشراح القاعة الكبيرة للهواء الرائع الداخل اليها من بين ثنايا الستائر الشفافة على محيطها، كان مطمئنا كما لم يكن قط من قبل، مرتاحا لسبب لا يعرفه، لم يتناهَ الى اذنه صوت ليخدش السكون، ولم تفح رائحة قد لا تعجبه ابدا، لم ير ما لا يسر عينيه، ولم يذق ما لا يراه طيبا، والاهم من هذا كله، ان قلبه كان مرتاحا، كان يشعر انه جالس على وسائد من غيوم بيض، كعرش وسط زرقة السماء الشاسعة، وعلى جانبيه ملاكان من نور ينصتان لما قد يقوله، شعر راموس انه في قمة راحته النفسية، بعد ان ارتاحت كل حواسه لكل ما رأى وذاق، سمع او لمس او عاشر..

رفع جفنيه ببطء، ونظر الى النسوة اللاتي يطفن في باحة القصر من امام عرشه، بحليهن الذهبية وشعورهن المرخاة، وبعطورهن الاطيب من روائح الدنيا كلها، حيث يمشين وصدورهن الشابة كأنها صدور البط تتراقص امامهن على وقع خطواتهن، حافياتٍ على مرمر الارضية اللامع، حيث يتركن اثرا من روعةٍ تحت اقدامهن، يضحكن هنا ويحكين هناك، يدرن الخمر ويشربنه وعيونهن كأنما رُسمت رسما، لتشع نقاءا ورونقا، كن يطفن من امامه كفراشاتٍ ملونة بفساتينهن الملونة، برزن كبستانٍ من وردٍ وألق، فيما بقي بعضهن حوله قرب العرش، بعد ان اعتلين الدرجات السبعة، جالساتٌ من حول عرشه كلبواتٍ حول الاسد، مدت احداهن يدها الى كأس من فضة، وملاته بنبيذ احمر براق، وقدمته اليه ، تناول

راموس الكأس وراح ينظر الى الزخرفة عليه، ثم نظر الى الفتاة فأومأت إليه بأن يشرب، وحين لامس النبيذ شفتيه، شعر بان طعم ما يشربه لا يمكن ان يكون هناك ما هو اطيب منه، النبيذ الهفني الاحمر، من عنب خاص حيث يقطفنه نسوة القصر من اشجار الكرم التي بدأت تتدلى على هفينا في كل مكان وزاوية، ويضعنه في طشوتٍ من فضة ليدسنه بأقدامهن، ثم يصفينه ليُشربَ ببردٍ لا يؤذي ولا يزعج. اكمل راموس شرب كأسه، ثم نهض واقفا عن عرشه، فالتفتت كل النسوةِ في القاعة اليه، وحل صمت لم يبق منه الا صدى اخر ضحكةٍ ضحكتها احداهن. نظر إلى كل تلك الوجوه النضرة، ثم قال: اريد نهرا من هذا النبيذ بجانب عرشي، يفيض من الاعلى بهذا المشروب، وينساب الى ما دون الدرجات السبعة، اغترف منه ما اغترف، وما يكون منه جاريا في نهره بأرضية القاعة، يكون محل استحمامكن، ستستحممن في خمر من نبيذ هفينا الاحمر ايتها النسوة، صاحت احداهن من بعيد: "سيدي، هلا مددت نهرا من اللبن الى جانبه، احب ان ارى جسدي ملطخا به" رد راموس : "ونهر من اللبن لنسوة القصر. .."

تعالت اصوات الضحك والابتهاج، وفرحت نسوة الباحة لما قاله راموس، وصبت الفتاة له كأسا ثانيا له، فيما سجلت السيدة مارلين طلبه هذا، واعطته الى المرأة الاخرى في مجلس التعميد لتقوم بتعيين النسوة اللاتي سيقمن بمد النهرين وملء احدهما بالنبيذ والاخر باللبن، كل هذا سيجري في ساعات قليلة، وسيرى راموس كيف ان كل ما يريده سيكون على الارض حاضرا، تدلى شعر ناعم على خده عندما عاد جالسا على عرشه، وسمع همسا اقشعر له جسده: "هذه الليلة، ستكون ليلة زرع نطفتك الاخرى"، قالت له ايفا.

الفصل 32

ابحـــرت السـفينة اسك مغادرة ميناء هفينا الكبير، بعد ان وهبت النسوة مـــا طلبن وما تمنين في قلوبهـــن، وراح الاسكيون يجذفون بعيدا عن الجزيرة التـــي احبوها اكثر هذه المرة، لمـــا راوا فيها من جمال وراحة، ووعدوا بالعودة حـــال بلوغ الامنيات في قلوب "ساكنيهـــا" ذروتها، غادرت آسك حاملة كل تلك الطلبـــات والامنيات، بعيدا الى بلدان اخـــرى، لتأتي بالتلبية في موعد مجيئهـــا التـــالي، وفوق تلـــك الحمولة مـــن الامنيات والطلبـــات، كانت قد حملت امنية اخـــرى اوصلتها مساعدة السيدة مارلين لبحارة السفينة، امنية راموس الشخصيـــة، ان تدوم استجابتهم لأمنيات وطلبات شعب هفينا، ولا تنقطع ابدا... باسم الالهة.

الفصل 33

في مخدعه تلك الليلة، كان الجو صافيا للغاية، شعر راموس بانه اكثر رجل محظوظ على وجه الارض كلها، بدت النوافذ مشرعةً الا من ستائر حريريةٍ خفيفة، نسمات ساحرة تدخل الغرفة وتخرج منها كشهيق وزفير عجوز لم يتحرك منذ ساعات، او نارٍ في زجاجةٍ لم تجعل شعلتها ترتجف او تهتز، كان السرير دافئا وعناقيد الثمار الهفنية متدلية من فوقه، حينما ولجت فتاة هذه الليلة عليه وهو بقمة راحته تلك، شعر بصدمة الاشتياق وهو ينظر اليها، فيما احس بالارتباك البسيط لما رأى، كيف لأنثى غيورةٍ كأيفا ان تجلب له فتاةً مثل باربوسا الثمينة، فقد كانت باربوسا بحلةٍ مختلفة كليا عما رآه عليه ليلة العاصفة، لم تسعفه ذاكرته المحو الجزء الاكبر منها في تذكر شكلها كله، لكنه يتذكر انها كانت متعبة ومرهقة، وكان بعض الطين يغطي بعضا من ملابسها، باربوسا اليوم فاتنةٌ حسناء ليس سوى للجمال سطوة على مظهرها، فتاةٌ مشوقة الطول بشعرٍ اسود يصل الى نهاية ظهرها، وبساقين حنطيتين كصدرها البارز من خلف فستان ابيض مزخرف بخيوط ذهبية، ولجت على الغرفة كراسيةٍ من رواسي الجزيرة، حتى لم يبد عليها اي ترحٍ لموت افراد عائلتها، جلست الى جانبه على سريره الملكي، وراحت ترشف شفتيه كما لو انها لم تكن متزوجةً حديثا وقد فعلت ذلك مع زوجها من قبل، تطاولت على ثوبه لتمزق بعضه بيدها الساحرة، ثم غمرت نفسها واياه في مضاجعةٍ احس راموس بانها كانت اجمل من كل مضاجعاته السابقة، حتى التي كانت مع ايفا قبل ليلة، وبعد معركة سرير حميمية طويلة، تركت باربوسا راموسا كخرقة حمراء مرمية الى جانب السرير، تركته بانفاس متسارعة، ورغبة جامحة بالفعل مرة اخرى واخرى، وفي كل مرة، كانت تزداد نطف راموس في جوفها الذي بدا كانه لم يرتو منها

بعـد، راموس الذي ادرك ان حتى غيرة النساء مـن بعضهن لم يعد لها تأثير على ظهـر هفينا. الكل يشعر بالرضا. بدءا منه. وانتهاءا بآخر انثى تسكن ابعد ساحل من سواحل الجزيرة.

امـام باب قصـر برادوزا الخشبي الهائـل، وقفت المرأة العجـوز طالبةً رؤية السيـدة مارلين. ادخلتها احدى فتيات القصـر الى غرفتها. كانت العجوز تحمل انبـاءا غير سارة بالنسبة لمضيفتها. جلسـت امام السيدة مارلين لتقص عليها انباء اولى محاولات احيـاء الجنس الذكري. وقالت لها ان اول سـت بيضاتٍ وضعتهـا دجاجة تناسلت مع الديـك الوحيد على الجزيرة فقست بصيصان اناث. ليس بينها ذكرٌ واحد. اهتز قلب السيدة مارلين لما سمعت. وشعرت بان الحصول على ذكور هو امر اصبح مستحيلا بعد العاصفة. لكنها لم ترد ان تظهر كذلك. ابتسمت بهدوء واخبرت العجوز بـان تقوم بمزاوجة دجاجة اخـرى مع ذات الديك. وان تعمل على تزويج اناث القطـط مع الهر الوحيد ايضـا. الارانب كذلك. يجب ان يظهر هناك ذكر ليمكـن القول ان جنس الذكور بالإمكان انتاجه من جديد في هفينا. هزت العجوز رأسها ونهضت. لكنها قالت قبل ان تغادر حجرة السيدة مارلين: "المبدأ هو النهاية. والنهاية هي المبدأ".

لم تفهم الاخيرة ما قالت العجوز. ولم تشأ ان تسألها. ابتسمت فحسب. وخرجت العجوز متكئة على عصاها الغليظة الى عملها. ستعمل على ان تـرى ذكرا يولد لتنقـل اخبار ولادته الى قصر بـردوزا. رغم ان قلبها كان يشعر بعكس ذلك.

الفصل 34

في اليوم التالي، وداخل قاعة القبة الكبيرة، كان الجو صاخباً للغاية، فتيات القصر يحتفلن برقصات متنوعة وضحكات مبتهجة في نهرين تم شقهما ليلة الامس، ليجري في احدهما نبيذ وفي الاخر لبن، كن عاريات تماما وقد ابتلت شعورهن وهن يتبادلن ركل النبيذ واللبن بأقدامهن على بعض، كان الاحتفال مبهجا للغاية، بعضهن يشرب بقايا الشراب من حافات النهر، واخريات يمارسن العابا مختلفة بالغوص وقدرة التحمل، فيما كانت نسوة الخدمة يطفن حولهن بمزيد من الشراب والثمار مما ذهب اكثره لذلك اللهو، عندما كانت الفتيات يتناولن منهن ثمار العنب الابيض ويضعنه بين اثدائهن، فيما راحت اخريات منهن يتمشين خارج النهرين على الارضية اللامعة وهن يتزحلقن بثمار البرتقال الازرق واجسادهن تقطر نبيذا، كل شيء لأجل المتعة والمرح، وبين كل تلك الاصوات، كان راموس جالسًا في ركن من اركان نهر الخمر وقد اجتمعت حوله نحو خمس فتيات من اجمل نساء الجزيرة، كان يضحك بصوت ذكوري يتردد صداه وحيدا في القاعة من تحت القبة، وكانت ايفا تمسح بيديها الرقيقتين كتفيه وقد جلست على الارضية بجوار النهر، فيما راح راموس يداعب خصور الفتيات الاخريات ويلتهم شفاههن وصدورهن، تعالت اصوات المرح في كل مكان، وفي شرفة في الاعلى، كانت السيدة مارلين واحدى سيدات المجلس واقفات لمراقبة ما يجري، شعرت بالسعادة لسعادة راموس، وبالحبور العظيم لكون رجل الجزيرة الاوحد يعيش حياته مستريحا، ممارسا لكل ما تشتهيه نفسه، ناعما بالراحة والطمأنينة والسعادة، حاصلا على شيءٍ يأتيه باللذة، لم تر راموسا ابدا هكذا من قبل، مرحا كطفل في رحلة، سعيدا كشاب ليلة زفافه، بل لم تر حتى ايفا بهذه السعادة من قبل رغم كل النساء

الملتفات حول رجُلها، استدارت السيدة مارلين عائدةً الى حجرتها، تاركةً قاعة برادوزا الكبيرة تحت قبتها الهائلة، كأنها تجلٍّ لرضا الالهة التام عن جزيرة هفينا واهلها.

لم يكن راموس، منذ انقلبت حياته على ظهر هفينا، ليفكر بمن سيخلفه، فقد غاص فيما منحته له الالهة عن رضا تام، تذوق كل ما تريده نفسه وتحلم به، حتى انه نسي كم مرة ضاجع فيها ايفا وكم اخرى كان بها مع باربوسا، كم مع الاخرى وكم مع الاخرى، كم من نطفه زرعها بهذه وكم بتلك، كان رأسه خاليا الا من لذاته، الا من الشعور بنسائم الهواء الداخلة الى قاعة بردوزا ومخدعه الخاص، الا من تلمس هذه و العبث مع تلك، الا من تذوق ثمار هفينا الجديدة النمو، الا من الاحساس بالاطمئنان العالي الذي لا ينتهي، قضى تلك الليلة الاحتفالية في نهر النبيذ حتى سكر اخيرا، وحملته الفتيات الى سريره بعد ان غسلن جسده بماء ورد، وغفت احداهن بجانبه حتى الصباح...

الفصل 35

تسعة اشهرٍ قضاها راموس من صدرٍ الى صدر، من حضنٍ لآخر، ايفا التي احبها، باربوسا التي عشق جمالها، وحتى دوراثا الصغيرة استقدمتها السيدة مارلين الى قصر برادوزا حين تذكرها وطلب مضاجعتها، قضى راموس تلك الاشهر يزرع بذوره هنا وهناك بلا طائل، تسعة اشهرٍ وجوفه يمتلئ من اطايب الطعام والشراب، متعة واحتفالات بمناسبةٍ او بلا مناسبة، رحلاتٌ الى تلول هفينا الخلابة التي زادها تنصيبه جمالا، لعب هنا ولهو هناك، وطمأنينةٌ ليس يخدشها ازعاجٌ او تعكيرُ مزاج، كانت الجزيرة تسير بحياتها يوما بعد يوم بمنتهى الراحة والهدوء، لم يحتج راموس للنظر الى القبة الكبيرة لتجميع حروفها كل هذه المدة، الأسكيون يروحون ويعودون للجزيرة كل شهر، ويحملون طلبات وامنيات سكانها، شيء واحد فقط لم يكن يحدث ولم يتم اخبار راموس عنه لإبعاد المنغصات عن تفكيره، لم يولد اي حيوان ذكر على الجزيرة حتى الان، وان كل ما تضعه الدجاجات والابقار والارانب وغيرهن كان اناثا، على الرغم من ان الافراد الذكور من كل نوع كانوا يتناسلون مع اناثهم في اي وقت، فحين هب نسيم الجمال الذي مر على هفينا يوم تنصيب راموس لم تعد الحيوانات تتزاوج في مواسم معينة كما كان يحدث، اصبحت ذكورها كمثله تماما، تختار ازواجها كما تشاء وتضع فيها نطفها حين تشاء، ولم تعد هناك فترات حملٍ تطول بالنسبة إلى الحيوانات التي تحمل مدّة طويلة، ما بدا لساكنات هفينا انه تأثر الكائنات بحاكم هفينا، كما كان تأثير نجاته من العاصفة الليلية وحيدا منعكسا على بقية ذكور الجزيرة التي نجت معه، على الرغم من كل الزيجات التي حرصت على انجاحها السيدة مارلين مستعينةً بالمرأة العجوز ذات العصا الغليظة، ولكن لم يولد ذكر بعد.

اليـوم، كانت ايفـا اولى الشاعـرات بإحساس الولادة، لقـد انقضت فترة تسعة اشهرٍ من حملها اولى مياه راموس، كانت ممددةً على سرير من حرير من دون ان تشعر باي الم للمخاض، شعورٌ فحسب، وجلست امام ساقيها المنفرجتين تلك المرأة العجوز ووقفت عند راسها السيدة مارلين بانتظار ما ستضعـه زوجة راموس الاهم، لم تطل عملية الولادة، وانفرط عقد انوثة ايفـا بسلاسة مفصحا عن مولودٍ جديـد، امسكت به العجوز وسحبته اليها، ورفعت جسمه امام عينيها ذات الجفون المجعدة، تفحصت امرا ما، ثم التفتت الى السيدة مارلين وقالت: انثى كذلك.

ساعـات قليلة مـرت، كانت فيها كل امـرأة ضاجعها راموس قد وضعت مولودها منه، وكان كل اولئك المواليد اناثا كذلك، ولم يكن راموس مكترثا لما ستجـيء به النسوة مما في بطونهن، بل اكمل حياته الجديدة كما بدأها، ولم تخـبره السيدة مارلين ابدا بما جاءت به بطون النسـاء، الا انها وقفت بقربه ذات مرةٍ وهو في قاعة القصر جالسا على عرشه، وطلبت منه النظر الى قعر القبـة وقراءة ما سيراه، استغرب ملك الجزيرة طلبها، وتذكر انه لم ينظر الى القبة حتى الان منذ قالت له الحروف (كُن)، اغمضت السيدة مارلين عينيها حين بـدأ ينظر الى الحروف، وبدأت ترتل مع نفسهـا تراتيل الدعاء من الالهة كـي تري راموس ما تريد ان تعرفه هـي، نظر الاخير الى الحروف، وتشكلت من امامه حروف كلمة واحدة قرأها للسيدة مارلين، كلمةٌ شرحت صدرها بقدرِ ما كان قلقا على مستقبل الذكور على الجزيرة: فَرح.

كانـت تلك الكلمة هي رسالة الالهـة الى السيدة مارلين عن طريقه هو، فلـم يفهم راموس ما كانت تعنيـه، لان ما ارسلت الكلمة من اجله كان جوابـا لما في قلبها، لا قلبه، وقريبا منهما، كانت تقف العجوز ذات العصا الغليظة، وحـين رات ما جرى قالت لهما: "المبدأ هو النهاية، والنهاية هي المبدأ".

مرت بضعة اشهرٍ اخرى اصبح فيها جيل من بنات راموس قادرات على الزحف وبانتظار القدرة على المشي. لقد مر عام كامل وهو ملك على ظهر هفينا. حياة لذيذةٌ واستقرار نفسي لا يوصف. عام كامل لم يفعل فيه شيئا سوى ملء معدته وافراغ خصيتيه. وفي ظهيرة يوم هفيني آخر. كان راموس جالسا على عرشه تحت مراوح يدويه تديرها ثلاث فتيات من اجمل بنات الجزيرة. كان ينظر الى القاعة التي قضى فيها ذلك العام كمقر دائم له. بزخرفتها وجمالها ومعادنها التي صنعت منها. نهض من مكانه وترجل على الدرجات السبع هابطا الى ارضية القاعة. سار الى احدى الاعمدة المزخرفة. وسارت خلفه الفتيات الثلاث. لكنه اشار لهن بالتوقف وتركه يستكشف ما صُنعت منه تلك الاعمدة الرائعة الهائلة. كانت قاعة القصر خاليةً تلك الساعة الا منه ومن السيدة مارلين التي كانت تجري اعمالا كتابيةً بسيطة تتعلق بزيارة السفينة اسك القادمة. لكنها كانت تنظر له وما يصنع. وفي تلك الاثناء ولجت ايفا على القاعة وراحت تنظر له وهو يخطو باتجاه احد الاعمدةِ وحيدا. كانت تسرح شعرها وهي تتابع خطواته وما يريد ان يفعله. مد راموس اصابعه وراح يتلمس العمود الرخامي الكبير. لامسه كمن يتلمس جفون حبيبةٍ ليتأكد من كونها نائمة. مر بنانه على الزخرفة والنقوش التي على العمود. واحس بان يدا مبهرةً تلك التي صنعته. رفع راسه لينظر الى قعر القبة. فهو يبحث عن تلك الاجابات التي هو بحاجة لها. رأى ان حروفا تشكلت بهيئة ما استطاع قراءتها. لقد قالت له القبة: افعل..

فالتفت الى السيدة مارلين التي كانت تنظر له باستغراب. وانتقل ببصره الى ايفا ثم قال: "اريد حجرا..."

تبادلت السيدتان النظر الى بعضهما. فراموس يبحث عن حجر لينحته.

اذ يبدو ذلك الامر شاقا، لمَ يستغنِ عن راحته في سريره الحريري مع اجساد شتى وثمار طيبة ويذهب لعمل شاقٍ كهذا؟

"اريد حجرا!.."

قال من جديد، وكانت ايفا تنظر إليه نظرة الاستغراب، فيما نهضت السيدة مارلين لتعطي امراً لاحداهن للتحرك الى النسوة العاملات في مناجم الجزيرة ومعادنها لجلب حجرٍ كحجر ذلك العمود الى قصر بردوزا لحاجةٍ ملحة. رأى راموس ذلك، وشعرٍ بالفرح لتلك التلبية، وعاد مرتقيا الدرجات السبعة الى عرشه، جلس ساقاً على ساق، وعاود النظر الى قعر القبةِ ليرى ما رآه اول مرة... افعل، كان يشعر بان ارادة الالهة تأتي بما تشتهيه نفسه، احس كما لو كانت امه قد سمحت له بفعل ما يحلو له، بدأ ينظر الى يديه اللتين سيستخدمهما في النحت عن قريب، ولما رفع بصره رأى ايفا واقفةً امامه بشعرها الطويل، ومشطها في يدها، جلست عند قدميه ووضعت يديها على ركبته، قالت له بأن عليه الاستراحة فحسب، فذلك عمل متعب، الا انه اجابها بانه سيكون حريصا على العمل بها من اجل متعته فحسب، وقال لها إنه سيفاجئها بما سيقوم بصنعه، قبلت جزئيا بما قال، على الرغم من خشيتها عليه، وخشيتها المضاعفة التي مررتها نظرات السيدة مارلين اليها كرسالة لايفا لمنعه من القيام بأي جهد، كانت مرت دقائق قليلة، حتى سمع صوت ضربات على الارض، ترجل راموس سريعا وخرج من اقرب بوابات القاعة الكبيرة، كانت ثلاث نسوةٍ من العاملات يدحرجن صخرةً من الرخام، تهلل وجه راموس فرحاً، واشار عليهن بإدخالها الى القاعة الكبيرة تحت القبة، وكان له ذلك، تناول ادوات النحت من احداهن، ثم امر الجميع بالانصراف، باستثناء ايفا.

تلمس راموس وجه الحجارة التي كانت تصل الى خصره، مرر اصابعه عليها كمن يحاول جس نبض بداخلها، او كأبٍ يريد الاحساس بابنه وهو

ببطن امه، وضع ازميل النحت على وجه الحجر، ولم تبرح عيناه النظر الى وجه ايفا التي كانت واقفةً امامه وقد احنت رأسها بانتظار ما سيقوم به، ضرب الازميل بالمطرقة فانتفض الغبار في اجواء القاعة، وراح يضرب مرة بعد اخرى وهو يراقب وجه ايفا الذي لم يتغير به شيء سوى رمشاتها المتناغمة مع ضربات المطرقة، كان الحجر يتكشف شيئا فشيئا كأنه يحوي في داخله امرا ما، امتلأت القاعة بغبار الحجر، لكنها لم تحجب رؤية ايفا بعيني راموس المستمر بالطرق، ولم يقاطع صوت المطرقة ذاك الا صرخة من ايفا: "توقف!"

كان ملك هفينا رافعا ازميله مسددا للضربة التالية، لكنه جمد في مكانه، رفع نظره اليها باستغراب، اردفت قائلة: "انت تؤذي نفسك راموس! قد تتعب يدك من ضربات المطرقة، اخشى عليك ايها الفريد"، قدحت شرارةٌ بعيني الساقي وهو ينظر اليها، اكملت قائلةً: "راموس، ايها الحبيب الذي احببته حتى قبل ان يصبح ملكا، انت تعيش حياةً ملؤها الراحة التامة، طعامك لم يذقه بشر على هفينا من قبل، شرابك عذبٌ وله طعم لا يوصف، وانا وباقي النسوة نعاشرك ونمنحك ما تريد من المعاشرة في فراشك والخمر يسيل على نهودنا وخصورنا، مالكَ والطرق والحجارة! يدك التي اعتادت على مسك نواعم الخصور لم تعتد على ضرب المطارق واستنشاق غبار الحجارة المتبعثر في الهواء كمرآة تتهشم، اتركها يا حبيبي!".

الا ان ايفا لمحت غضبا في عينيه استحال الى رعب بظرف ثوانٍ، التفت راموس الى الحجارة وراح يضربها بشكلٍ اقوى واقوى، صرخ وهو يهوي بمطرقته المرة بعد المرة: "دعيني اجرب شيئاً اخر، لقد كنت انحت دلاء الماء من قبل، لا تعلميني ما اقوم به وما لا اقوم به! قفي هناك فحسب..."

كان صوته مزمجرا عندما قال ذلك، تجمدت ايفا في مكانها وهي تنتظر ان

تكتمل منحوتته. حاولت فعلَ شيء لردعه لكنها خشيت من ردة فعل اعنف هذه المرة. كان يهوي على الحجر اكثر فاكثر. وكان الغبار ينفجر بعنف من اركان ذلك الحجر الذي تصاغر كثيرا عن حجمه السابق. بدا ازميله يدور على كل زوايا القطعة. حتى ضرب ضربته الاخيرة وكانت رقيقة بعض الشيء. رفع بصره نحو ايفا. وقد تسارعت انفاسه قليلا. امسك بطرف الحجر واداره باتجاهها. وصدمت الفتاة لما رأت. لقد كان ذلك تمثال لرأسها. فغرت ايفا فاها مستغربة من الدقة والسرعة التي نحت بها راموس وجهها وراسها. لقد كان دقيقا. كانت تظهر لما صنع نظرة الاستغراب والذهول. رفعت نظرها اليه. كان وجهه يبدو حاملا للقليل جدا من الغضب. رمى بالإزميل والمطرقةِ على الارضية الرخامية. وراح يمشي صوب غرفة نومه. لحقت ايفا به مستعجلة. ارادت شكره على هديته بالطريقة التي يحبها. الفراش. الا انه رفع يده وهو يسير الى هناك. لن تلحقي بي.

كانت ايفا قد دخلت الى غرفة السيدة مارلين وهي تخبرها بما فعل راموس. انه يبدو غاضبا نوعا ما. بدأ يميل الى النحت الذي يحبه. بعد عام كامل لم يمارس فيه غير ملذاته التي منحها اياه قصر بردوزا ومنصب ملِّك هفينا. انه يجهد نفسه بما يحب. على الرغم من ان ذلك يبدو مؤلما بالنسبة له. سمعت السيدة مارلين ذلك من ايفا. لم تقل شيئا وهزت رأسها مطالبة الفتاة بالاسترسال. اكملت ايفا. وشرحت لها كيف انه لم يسمح لها باللحاق به الى مخدعه لمنحه شيئا من المتعة بعد هديته لها. وعندما سمعت السيدة ذلك. ضاق اتساع عينيها. وشعرت بخطر بسيط. نهضت من كرسيها واتجهت الى الباب. الا ان ايفا نادتها وقالت لها ان كانت تنوي زيارة غرفته فعليها ألّا تفعل. فهو يبدو كئيبا بعض الشيء. لكن السيدة مارلين لم تشأ الاستماع لذلك. واندفعت خارجة باتجاه غرفة

نوم راموس. عبرت القاعة الكبيرة والتي كانت خاليةً الا من تمثال راس ايفا، ووصلت الى الجانب الاخر حيث الباب المؤدي الى مخدع الشاب. طرقت عليه خفيفا. فلم تسمع جوابا. فاضطرت للطرق بشكل اقوى واقوى من دون رد. واخيرا. فتحت السيدة مارلين الباب داخلةً نحو راموس. الا انه لم يكن هناك. شعرت السيدة مارلين ان صاعقة قد اصابتها في ام رأسها. رجل الجزيرة الوحيد ليس في غرفته. اندفعت الى شرفة الغرفة والمطلة على مكعب باترس. كان صوتُ طَرقٍ يتصاعد من هناك. ولما دخلت الشرفة. كان غبار يتصاعد بشكل كبيرٍ من زاويةٍ فيها يتدلى نبات اصائصها الى اسفل القصر. و بين غيمة الغبار تلك وجدت راموسا وهو ينحت في عمود رخامي يستند عليه القصر. كان يعمل كطفلٍ مجنون. نظر الى السيدة مارلين ولم يتحدث. بل راح يضرب بقطعةٍ حديد صغيرة في يده على ذلك العمود. لم يبن ما ينوي ان ينحته هناك. ولم تستطع السيدة مارلين سؤاله عما كان ينحته. لقد كان يبدو غاضبا وهو يدور حول العمود الرخامي ويضربه بتلك القطعة من الحديد. بلعت السيدة ريقها ونطقت قائلة: "توقف راموس!". تجمدت يده في الهواء ونظر اليها. كانت الشرارة لاتزال تقدح في عينيه. "اهدأ ارجوك! انك تؤذي نفسك!" استدار معطيا ظهره اليها وراح يحفر تفاصيلا دقيقة بهدوء على وجه العمود. "هل تريدينني ان اعود لفراشي كي اضاجع المزيد؟" قال لها. فردت: "هل مللت النساء راموس؟ هل تريد ان ارسل لك المزيد منهن؟ هل تريد ان اعلمهن فنون مضاجعةٍ جديدة؟ قل لا تتردد في..."، "كفى!" صرخ بغضب. "لامزيد من المضاجعة! لقد زرعت بذوري في كل امرأة أرسلتها لي. اريد ان اغير ما اقوم به كل يوم! دعيني سيدة مارلين!" ابتسمت الاخيرة بتصنع وقالت: "انت تريد ان تتسلى بهوايتك ايها الملك؟. حسنا. هل أجلب لك المزيد من قطع الرخام لتنحت عليها ما تريد؟" توقفت يد راموس عن النحت وهوت

الى جانب ساقه، نفخ على منحوتته ليزيل الغبار من عليها، والتفت الى السيدة مارلين بعينين متعبتين وقال: "بلى! ارجوك!..."
اتسعت عيناها وهي تنظر الى ما تركته يد راموس في الرخام، لقد حفر عليه شكل ساعته الخشبية بكامل تفاصيلها وزخرفتها، وجعل اميالها تشير الى الساعة السابعة.

الفصل 36

بين نهري الخمر واللبن، تحولت قاعة قصر برادوزا الكبيرة الى موضع نحت لراموس، مضى شهر على اول ضربات ازميله على تلك الحجارة التي نحت عليها وجه ايفا، لم تدخل اي فتاة الى هنا منذ شهر، كان ليله يتصل بالنهار والقاعة ترتج على وقع ضربات مطرقته على كتل الحجارة التي حولها الى تحف نحتية رائعة، ورغم ان الغبار الابيض غطى ارضية القاعة الرخامية كلها، لم يسمح راموس لأي كان بان يدخل لينظف المكان، من كان يراقب ما يفعله هو السيدة مارلين وايفا فقط، اما غرفة نومه، فلم تدخلها اي فتاة سوى ايفا لتشاركه السرير، لقد امر بمنع اي امرأة اخرى من ان تدخل الى هناك، وكان مما لوحظ عليه انه اصبح قليل الكلام، يدندن احيانا وهو يصنع مخلوقاته الحجرية تلك، ولا يجيب على الكثير مما تقوله له الأمرأتان احيانا اخرى، ينهمك في ضرب الحجارة والنفخ عليها، حتى صنع العشرات من التماثيل التي كان بعضها يحمل وجوها غريبة، مخلوقات لم ير احد مثلها، طيور باذانٍ طويلة، ومنحوتات لأطفالٍ بجناحين، اما اكبر تماثيله فقد كان ذلك الذي لازال يعمل على انجازه، والذي لم تكن اي من ايفا والسيدة مارلين لتفهما ما سيكون عليه شكله النهائي، لكن ما بدا منه كاملا هو وجهه ولحيته الطويلة، جالسا على عرش وينظر الى الاسفل، وقد سالت من فمه الى لحيته حروف بعشوائية مطابقة لتلك العشوائية التي نقشت عليها حروف القبة الكبيرة في القصر، كان يضع تاجا على رأسه، ويحيط به طيران برؤوس بشرية..

"ما الذي تعتقدين بانه ينحته ايفا؟" قالت السيدة مارلين للفتاة وهما تقفان على شرفة في القاعة، وتنظران الى ملك الجزيرة وهو ينحت تمثاله الاعظم، "لا ادري، ربما راموس ينحت نفسه!" ردت ايفا، لكن السيدة مارلين

اجابت بقولها: "لا اعتقد، ليس لراموس ذقن كهذا، ثم ان الحروف في القاعة تقع الى الاعلى منه وليس اسفله"، ابتسمت ايفا لفكرة راودتها وقالت: "ربما هو راموس الذي يريد ان يكون عليه عندما يشيخ!"، لكن السيدة مارلين استدارت لها وهي تغادر الشرفة وقد همست قائلة: "راموس لن يشيخ، سيبقى بعمر الثالثة والثلاثين الى الابد!"..

شعرت ايفا أن ما قالته السيدة مارلين هو ضرب من الجنون، كيف يمكن لمخلوق ان يبقى على عمره ذاته، لقد كان عمره ثلاثةٌ وثلاثون ليلة الحادي عشر من ديسمبر حينما وقعت العاصفة، واليوم، تقول السيدة مارلين انه بقي بعمره ذاته وسيظل كذلك الى الابد، تلمست ظاهر يدها وهي تخشى ان تغزوها التجاعيد قريبا، وتشيخ امام ريعان شباب عشيقها الذي لا ينطفئ، كيف سيحبها عندئذٍ، وكيف لن تزيغ عيناه الى نسوة هفينا الرائعات وهن يتجاوزن مرحلة الطفولة الى اوج الشباب امام عينيه الشبقتين، في حين ستذوي هي بجمالها وجسمها الفاتن من امامه، استدارت مبتعدةً من الشرفة هابطة الى سلم كبير يقود الى ارضية القاعة التي كانت مليئة بالتماثيل الكاملة وغير الكاملة، الا انها فوجئت بان السيدة مارلين واقفةٌ امامها، يبدو انها لم تكمل كلماتها الاخيرة، فتمتمت لايفا بكلمات اضافية قليلة قبل ان تغادر، قالت لها: "وطالما انه احبك انتِ، وطالما انك جزءٌ من سعادته، فلن تشيخي ابدا، مثله تماما!"..

امتدت ضربات راموس الى ساق التمثال المهيب الذي صنعه، وهبط الى ما دون الركبة، الا ان شكل سيقانه بدا مختلفاً عما كان متوقعا، لقد بدأ ازميل راموس يشق طريقه متعرجا ومتشعباً من منطقة الركبة، حتى وبعد طرق كثير، بدا ان لهذا الشيخ ذي اللحية، الناظر الى الاسفل ذي الحروف السائلة لما دون فمه، بدا ان له سبع سيقان بدل الاثنين، حتى

ظهـر كأنه شجرة لها عروق سبعة ترسخ في التراب، كان مرتفعا ومهيباً، كهيبة النظرة الاولى لأعظم جبال الارض، نفخ نفخته الاخيرة على الغبار الـذي تجمع على سيقان تمثاله، وتراجـع متكئا على عمود من خلفه، وهو ينظر الى الشكل النهائي لتمثاله الكبير..

الفصل 37

في اليوم التالي، وجدت ايفا راموسا جالسا امام تمثاله الكبير وهو ينظر اليه، سبعة امتدادات متعرجة تقود الى ركبتي رجل كبير، بدا كتمثالٍ روماني ضخم تم نحته بعناية، حتى بانت عروق يده من خلف جلده، وحتى بان تداخل شعرات لحيته الكثة الطويلة الى الاسفل من ذقنه، لم تجرؤ هي على سؤاله عن هوية ذلك التمثال رغم فضولها المتزايد، وشعرت بان السيدة مارلين هي الوحيدة القادرة على استنطاقه، حتى انها تمنت لو ان الاخيرة ستشعر بنفس الفضول كي تسأله عن ماهية صنيعته، لم ينطق هو، وظل ينظر الى التمثال الجالس امامه، حتى سُمِعَت اصوات وقع اقدام تقترب، لم يلتفت راموس اليها، ورأت ايفا ان السيدة مارلين قد اتت اخيرا، وهي تنظر بعينين متسمرتين على التمثال دون ان تنظر الى خطواتها، كانت مستغربة كل الاستغراب، وانبثقت عيناها عن محجرين وجلين مما يريان، وقفت امام التمثال الى جانب نحاته، تسلقت عيناها الى اجزائه، من جذوره الى قمة رأسه، ثم نظرت الى راموس الذي نطق من دون ان يلتفت اليها، " تحت هيلا تقبع المعادن التي شقت الارض، وصنعت الحافة المنهارة، المعادن السبعة لها الهة سبعة من وراءها، الهة لها ارادة واحدة متناغمة، وتلك الارادةٌ تبدو كرجلٍ عظيم اشيب بلحية طويلة، انها تلك الارادة الموحدة التي تسيل منهاً حروف الحكمة الى البشر، وحياً ورؤى وكلمات!"..

فاضت عينا السيدة مارلين لما سمعت، لقد نحت راموس ارادة الالهة السبعة على هيئة رجل له سبعة جذور، كل جذر قادم من واحدة من الهة المعادن، الهة هفينا منذ ظهور البركان هيلا وتكوين الحافة المنهارة، منذ عرف الناس على هذه الجزيرة، ان تلك الالهة هي التي بيدها امكانية

ان تقلب هفينا الى جنة غنّاء كما هي اليوم، او جحيم قاتلٍ كهيلا، وشعرت، ان راموس في احدى رؤياه قد رأى ارادة الالهة على شكل حقيقي، فصنع من الحجارةِ ما رأى، ليكون ذلك الرجل المهيب الجالس امامها، خفق قلبها وهي تنظر اليه، لقد كانت تنظر الى ارادة الالهة السبعة بشكلها الحقيقي، وبحروفها التي ترسلها الى البشر هاويةً من فمها الى القلوب، والى الانفس والابصار..

كانت ايفا قد استمعت لكل ما جرى، ونظرت الى راموس الجامد على كرسيه وهو ينظر الى تمثاله العظيم، والى دموع السيدة مارلين وهي تنهمر فرحا لقوة ايمان راموس التي قد تساعد على انجاب الذكور باسم رضا الهة المعادن السبعة وارادتها الموحدة، نهضت ايفا لتغادر القاعة، تاركة الريح تدفع بعض حبات الغبار على الارضية اللامعة، ومن خلفها تمثال راموس العظيم، وهو، والسيدة مارلين.

الفصل 38

كان جيل من بنات راموس قد بدأ يترعرع ويكبر، وجيل من اناث حيوانات الجزيرة قد بدأ ينمو، كذلك، كان جيل من تماثيله يتزايد عددا، الا ان لا تمثال تخطى حجم تمثال الارادة الالهية الموحدة، ذلك اليوم، وقد مر عام ونصف على تنصيبه ملكا على هفينا، كان راموس واقفا في شرفة قصر بردوزا، ناظرا باتجاه مكعب باترس، لم يتكلم طيلة تلك الشهور الا مع السيدة مارلين وايفا، لقد منع النساء من مخالطته منذ لك الحين، ولم يغترف ابدا من نهري الخمر واللبن الذين يجريان في القاعة الكبيرة، حتى انه لم ينظر منذ زمن الى الحروف في قعر القبة، كان يأكل القليل من الثمار الدانية في القصر وخارجه مما يسد رمقه وحسب، حتى انه لم يضاجع ايفا كثيرا، بل كان ما يقوم به تحت اصرار السيدة مارلين ورجاءها العميق بان يضاجع ولو امرأة واحدة، لعل النتيجة كانت ذكرا جديدا، وبذا، اصبحت ايفا حبلى مرة اخرى، وقد تبقت بضع اشهر على ولادتها.

ناظرا من تلك الشرفة الى السور المقدس المحيط بمكعب باترس، كان راموس ينظر الى امرأة جاثية امام المكعب ذي القبة البيضاء، وقد غرقت في ترجياتها للالهة، وتلت صلوات طويلة، لم يفهم هو ما كانت ترجوه منها، لكنه لم يكن هناك شك بأنها السيدة مارلين كانت ترجو الالهة انقاذ الجزيرة من الفناء، بعد ان لم يولد ذكور على ظهرها في الجيل الاول الذي ولد، اما خشيتها الاكبر، فكانت ان راموس لم يعد يهوى مضاجعة اجمل نساء الدنيا، واعتكف تحت القبة الكبيرة ناحتاً تماثيله الصماء، رمش ناظرا الى السيدة جاثية على ركبها وهي تصلي امام مكعب باترس، ثم استدار نازلا عبر سلم رخامي الى الاسفل، ومشى باتجاه السور الخارجي لقصر برادوزا قاصدا مكان العبادة ذاك، مشى سريعا باتجاهه، دون ان يأبه

لما كان حوله من جمال جزيرة هفينا الذي جلبه تعميده ملكا عليها، كانت المسافة قريبة، حتى وصل الى السور المقدس، او ما يسمونه مبكى المتعبدين، جدار نحتت عليه حروف عبادة لقداسته، وعلقت عليه قطع رثة من قماش ثياب السائلين طلبا لحاجاتهم، فتجاوزه داخلا الى الباحة المحيطة بمبنى مكعب باترس المقدس، حيث كانت السيدة مارلين جاثية على الارضية المعبدة بالقرميد الابيض، اقترب منها حتى وقف خلفها، وبدأ يسمع نشيجها وهي تغطي وجهها بكفيها، كان وجهها مقابلا للمكعب الاسود الكبير الذي تعلوه قبة رخامية بيضاء، انصت الى ما كانت تقول، كانت تطلب من الالهة ان تمد راموس بالرغبة بالتناسل من جديد، وان تفك عنه عزلته التي قضاها مع الاحجار خلال الفترة السابقة، لم يكن له ان يتأثر او يحزن لما تقوله السيدة، فقد نسي معنى الحزن مذ انتهى تعميده ملكا على الجزيرة، الا ان شعورا ما دفعه للجثو الى جانبها بمواجهة مكعب باترس، جلس على ركبتيه بجوارها وهو في مطلع حالة من الخشوع، فشعرت السيدة مارلين بان احدا ما قد صار بجوارها، والتفتت فكان يجلس بجنبها كجلستها، وقد شبك اصابعه واغمض عينيه، وراح يتلو بعض الكلمات بمواجهة مقر الالهة الاعظم.

كفكفت السيدة مارلين دموعها، وراحت تستمع الى راموس وهو يتمتم مخاطبا ارادة الهة المعادن السبعة المقدسة، كلمةً بعد كلمة، وعبارةً بعد عبارة، غاص في كلامه ، وفاض حبا في العبادة امامها، كانت تنظر اليه نظرة المتعجب وهو يغمض عينيه بشدة حتى تخضلت جفونه دموعا، ويضم كفيه لبعضهما ليصبحا كتلةً واحدة، راح صوته يقترب من النشيج والنحيب، وبدأت قطرات دمع تتكثف تحت جفنيه، ولا اراديا، وجدت السيدة مارلين نفسها بعينين تجريان دمعا لما رات عليه راموس، رغم انها لم تفهم كلماته التي كان يتمتم بها، لكن منظره بهذا الخشوع خشع

قلبهـا حتى كاد ينفطر، وضعت كفيها علـى فمها وراحت تبكي بشدة، وقـد اتسعت عيناها الحمراوان وهما ناظرتان اليه، حتى اجرت عينا راموس الدمـع منسكبا كنهرين مالحين على خديه، وبـدأ منكباه يهتزان بنشيج بكاء عميق، فانهار ساجدا امام مكعب باترس وقد غرق في نحيبٍ طويل... نهضـت السيـدة مارلين لتبتعد عنـه وتتركه لعبادتـه، كانت تنسحب بهدوء وهي تنظر له من خلف عينيها الدامعتين، جرجرت ذيلها وابتعدت نحـو الجدار المقدس من وراءه، بدا راموس اقرب الى ارادة الالهة اكثر من اي وقـتٍ مضى، حتى انـه لم يرفع رأسه مـن سجدتـه، اذ راح ينشج عابدا محبـاً، عندما تركته السيدة مغادرةً مكعب باترس، عائدة الى قصر برادوزا الكبير..

في ذلك المساء، ومن خلال مراقبتها اياه رائحةً غادية من برادوزا الى مكعب باترس، ادركت السيدة مارلين ان راموس قد اعتزل الطعام في تلك الليلة، لم يقطـف ثمـرة واحدة، ولم يطلب عشاءا مطهيا مـن لحم ضأنٍ او طير مشـوي متبـلٍ ببهار هفينا اللذيـذ، فهو لا زال في مكعـب باترس مقابلا مبنـاه المقدس، يحتضنه الجـدار الخارجي للمكان مـن كل الجهات، اذ لم تنقطـع شفتاه عن الهمس للالهة بالشكر والعبادة، حتى خشيت عليه من وضعـه ذاك، وخافت ان يتعبه الجوع وقلة الطعـام وهو هناك بقبالة الالهة، بقيت تراقبه عن كثب، حتى وجدته في نهاية اليوم في باحة المعبد وحيـدا وقد توسد ذراعـه نائما، لم تعرف ماذا تفعـل، واحاطت بها الحيرة والقلـق كما لم يكن من قبل، كذلك كانت ايفـا مثلها . ايفا التي كانت بانتظـاره في مخدعه بقصـر برادوزا قلقةً من غيابه، لقـد تحول راموس في الفـترة الاخيرة الى كيانٍ جديد، رجل اخر غير الـذي عرفته -منذ تعميده- صاخبا محبـا للفتيات، آمراً بشق انهار الخمر واللـبن، قاطفا للثمر محبا للطعـام، لم يعد راموس نفسه، ذلك الشره الى الجمال والطبيعة والغناء،

الجالس على عرش الجزيرة اوحداً غير آبهٍ ان كان سيخلف ذكورا ام اناثا فحسب، حتى انه لم يعد ذاته الذي يقضي وقته في نحت الاحجار، مذ انجز تمثال ارادة الالهة السبعة المهيب وبعض التماثيل الاخرى، ترك النحت والمطارق والازاميل، وترك المشي وسط الغبار الابيض المتناثر على الارضية اللامعة لقصر برادوزا، لقد بدأ يذبل شيئا فشيئا، متقربا للالهة، معتكفا امام معبدها، ونائما بملابسه قبالة مكانها، كانت ايفا والسيدة مارلين تخشيان على رجل الجزيرة الوحيد من ان تتم خسارته، ولكنهما كانتا تعزيان نفسيهما بأنه اصبح اقرب الى ارادة الالهة، لذا، فإنها الوحيدة القادرة على انقاذه وصد الخطر عنه، انه حبيبها الان، وعبدها المطيع المحب الذي يتلو الصلوات تلو الصلوات امام المعبد، وينشد الدعاء تلو الدعاء ككاهنٍ افنى عمره مطيعا للالهة، تلك الليلة انتهت ببزوغ الصباح، حينما افاقت المرأتان لتجدا نفسيهما نائمتين عند الجدار المقدس الخارجي لمكعب باترس حيث غفتا هناك، وقد استيقظتا على صوت ترانيم راموس الصباحية امام مبنى الالهة ذاك.

الفصل 39

مضت تسعة شهورٍ اخرى، ولا ذكور بين الحيوانات. هذا ما اخبرت به العجوز ذات العصا الغليظة السيدة مارلين، واجابتها الاخيرة، انه ليس هنالك من نساء حوامل، فقد امتنع راموس عن النساء مذ دخل في اعتكاف طويل في مكعب باترس امام معبد الالهة، وبدأ وضع الجزيرة يقترب من الخطر، ولم يكن تفسير العجوز لما يجري الا مثل كل مرة: "المبدأ هو النهاية والنهاية هي المبدأ".

ليس معروفا الى الان، لم تريد الالهة ان تديم الانوثة على ظهر هفينا، وليس لاحد حق الاعتراض على ذلك، لم يولد حيوان او صوص او سمكة ذكر حتى الان، كانت السيدة مارلين تخشى ان تطلب من راموس ان يعود الى قصر برادوزا ويلقي نظرةً على الحروف الالهية في قعر قبة القصر لتسمع رد الالهة عما يجري عن طريقه، فقد كان يبدو مندمجا للغاية مع صلواته الطويلة في المعبد، وصار غذاؤه التين يتدلى من اشجار الباحة الواسعة المحيطة بالمعبد، مع بعض حبات الزيتون من اشجار اخرى في المكان، لقد اعتكف طويلا، وصار اقرب الى الجنون بقربه لارادة الالهة.

كان لا ينفك ينظر الى مبنى مكعب باترس بعينين متشوقتين، وبقلبٍ معلقٍ بها، اذ يطوف على المبنى المقدس لساعات، ثم يقف امام الجدارٍ المحيطٍ به وهو يقرا بعض التراتيل ويتمايل بجسمه الى الامام والى الخلف، ثم يعود ليجثو امام مبنى العبادة في الباحة، يشبك يديه ويتعبد، واخيرا، ينهي فصل عبادته هذا بالسجود الطويل الممتلئ خشيةً وخشوعا، ودموعا في اكثر الاحيان، وفي ليلة ما، حدث ما لم يحدث مع راموس طيلة الشهور الطويلة التي قضاها متعبدا هنا، فوسط جو ليلة كثيفة الظلام، تراءى له تمثاله الذي صنعه من الحجارة، طافيا في السماء فوق

القبة البيضاء الرخامية المستندة على المكعب الاسود لمكعب باترس، تراءى بساقيه المتشعبتين الى سبع جذور متشابكة، كان واضحا بلحيته وجسمه الغليظ ونظرته التي تكاد تنطق، ارتعد قلب راموس لما يراه، فما صنعه بيده بدا امامه الان متحركا، حرك التمثال الطافي في الهواء رأسه ورفع بصره الى الشاب، وانهالت من فمه الى لحيته المتشعبة حروفٌ كتلك التي نحتها راموس عليه كتمثال، سالت الحروف ببطء ما لبث ان تسارع، وراحت عينا راموس تقرآن ما تنبس به شفتاه من الحروف، كان خشوعه يتعاظم وهو يقرأ ذلك الكلام، وبعد دقيقةٍ واحدة ظهر بها التمثال معبراً عما يريد قوله لراموس، اغمض عينيه وتلاشى، وعاد الفضاء خاليا الا من نجوم لامعة في سماء هفينا..

انكب راموس ساجداً لمكعب باترس، لقد استجابت الالهة السبعة لصلواته، وظهرت له ارادتها الواحدة صريحةً على هيئة التمثال الذي صنعه لها، لقد طمأنت قلبه بكلمات كان بحاجةٍ اليها، وقالت له، ان ما على الجزيرة من جمال واطمئنان باق ما بقي هو هناك، اي الى الابد، وان ما اصبح يشكو منه من اعتكافٍ وابتعادٍ عما كان يؤنسه سيزول عن قريب، وسيعود الى حياته التي بدأها بعد ان تم تعميده، كما كانت مملؤة بالفرح والحبور..

ساجدا امام الالهة، شاكراً اياها، فائضاً بدموعه، غفى راموس فرحاً، وغط في نوم عميق.

في اليوم التالي، وصلت السيدة مارلين مع بضع حباتٍ من الزيتون والتين الى باحة كيوب باترس، كانت قد جلبته بعد ان اصبح غذاء راموس الوحيد، هذا هو افطاره لهذا الصباح، مثل كل صباح منذ شهور، لكنها ما لبثت ان وجدته جالسا وقد مدد ساقيه امامه ناظرا الى معبد الالهة ذاك، كان يبدو مفكراً بعمق في امرٍ ما، يداعب ذقنه وينظر الى ما هو امامه، خطت

الى الباحة بخشية اغضابه، ربما لو جاءت ايفا بالإفطار لكان غضبه المتوقع سيكون اقل، الا انه حينما رفع بصره نحوها، لم يكن يبدو عليه انه سيغضب كثيرا لاقتحامها وحدته، كان يبدو بريئا ومتعبا بعض الشيء، لا زال يداعب ذقنه وهي تقترب، وصلت امامه وخيم عليه ظلها، كان ينظر الى عينيها دون ان يتحدث، انخفضت السيدة مارلين واضعةً افطاره امامه، نظر اليها دون ان يتحدث ايضا، ثم قال لها: "كم تعتقدين انني سأبقى على ظهر هذه الجزيرة، حياً ومرتاحا؟"، تفاجأت بما قال، وقالت له: "اطمئن، لن يزول عنك ما انت فيه!"، تجهم وجهه كمن يرى مصيره سرمديا على حالٍ واحدة، وقال لها: "لقد تجلت لي ارادة الالهة الواحدة ليلة امس، كنت فرحا ومغتبطا حد الجنون، لكني تذكرت اليوم، انها قالت لي اني باقٍ على ظهر الجزيرة هذه الى الابد وسط ما انا فيه، رغم انها وعدت بان تعود نزواتي ويرجع لي شبقي بالحياة عليها بين كل الطيبات التي عليها، لكنني بعد اعوامي القليلة هذه، ارى انه لمن الصعب ان .."، "ما هو الصعب ايها الملك!"، قالت السيدة مارلين بحدة وغضب ممزوجتين بتعبها كله الذي تعبته معه، ".. هل تعلم ان هناك ملايين البشر ممن يتمنون حياةً كحياتك؟ هل تعلم أنك تعيش في الجنة بكل تفاصيلها؟ ما الذي تحتاجه؟ الطعام والشراب وكل ما تشتهيه؟ النساء بأثدائهن المتنوعة وانفاسهن المختلفة الجمال؟ الحكم والملوكية على سائر مخلوقات الجزيرة؟ نسمة الروعة والجمال التي جعلت من هفينا اجمل بقاع العالم؟ راموس ماذا تريد؟ ليس هناك ما ينقصك! النسيم جعل النساء تطمئن هنا وترتاح فلا يزعجنك بشيء الا ان اردتهن، حتى الاموات تجلوا لباربوسا وغيرها كي لا يشعر احد بالفقدان، نهرا الخمر واللبن لا زالا يجريان من تحت عرشك في برادوزا يا راموس، عبثت كما اردت ولعبت كطفلٍ مشاكس ولم ينهك احد ولن! .. ما الذي .."، واهتزت السيدة مارلين بنشيجٍ وبكاء لم تسمع

ولم تر هفينا مثله منذ ليلة العاصفة، بكت كطفلةٍ تفقد كل شيء، وبدا ان روح الاطمئنان التي مرت على الجزيرة قد بدأت تتصدع امام حزنها، كان راموس ينظر اليها من دون ان يبدو عليه شيء، لقد تشبع باطمئنان الالهة حتى صار لا يشعر تجاه الحزن والخوف بشيء، كان لازال جالسا على هدوئه، لم يتحدث ابدا، سوى ان عينيه بدأتا تلمعان من شعاع الشمس الذي يصيبهما وهو ينظر اليها، كان يراجع ما مر به على مدى عامين ونصف منذ التعميد، من تنصيب وعبث ورفاهية، ثم اعتكاف للنحت، ثم العبادة في مكعب باترس، كان صوت السيدة مارلين لا يزال يتعالى في باحة المعبد وهي تبكي بحرقة، الا انها صمتت تماما حين سمعت منه عبارة واحدة قال لها فيها: "نعم انها جنة!"، نظرت اليه والدمع على خديها لازال جاريا، اكمل قائلا: "جنة كما ارادتها الالهة، ومثلما صممتها وفق ما تراه مشبعا لرغباتنا.."، شهق وزفر بعمق ثم قال: "سيدة مارلين، الجنة الحقيقية ليست كما تريد الالهة ان تكون، بل كما نريدها نحن، الجنة هي ان تعيد لنا الحياة التي عشناها من قبل كبشر اعتياديين.. لكن بلا حزن، بلا فقدان، بلا شرٍ وبلا المٍ اومعاناة!"..

احست السيدة مارلين بكم الالمٍ الذي يحمله صوت راموس، ولم تصدق انه ذاته راموس الذي عاش عامه الاول بعد التعميد مشبعا كل نزواته ورغباته، مظهرا شهواته كلها، متذوقا الالذ من طعام وشراب ونهود وخواصر، عابثا بالنساء ايما عبث، راقصا تحت قبة برادوزا الصاخبة بأصوات الجميلات، وسابحا في انهار ما يشتهى من الشراب، ولم تصدق انه ذاته الذي كان فرحا بانزوائه لممارسة هوايته المحببة لعام كامل، لقد تهدم كل فرحه، حتى ذاك الذي يبدو انه غمره حين رأى الالهة يوم امس بعد ان تعبد كثيرا طلبا لرؤيتها، على الرغم من الوعد الذي منحته بان تعيد له الاحساس بالشبق للعودة الى نزواته، لقد تحطمت امال راموس

بالعيش على ظهر هفينا الرائعة حياةً ليست كمثلها حياة، انهارت السيدة مارلين امامه جاثية، وراحت تبكي كما لم تبك من قبل، نشجت طويلا دون ان ترى عليه اي من امارات التعاطف، لكنها حين رفعت بصرها نحوه، وجدته وقد غادر باحة مكعب باترس عائدا بخطى طويلة باتجاه قصر برادوزا الكبير، تاركا خلفه حبات الزيتون والتين في صحنه على ارض الباحة، نهضت لتلحق به، وكلها امل بان نزواته عادت اليه في هذه اللحظات، وانه سائر الى برادوزا ليعيد نفسه حاكما، وليتناسل مع النساء من جديد، شعرت بأنه كذلك، وان تناسله القادم قد ينتج ذكورا هذه المرة، كانت تسير خلفه بمسافة لم تكن طويلة، وتراءى امامهما البناء الهائل للقصر، حتى ظهرت شرفة مخدعه وقد اطلت ايفا منها، وحين اقتربا، كانت علامات الفرح الكبير تتضح كالشمس على وجهها، لقد شعرت بما تشعر به السيدة مارلين، لقد عاد راموس، لا تفسير لذلك سوى انه قد كسر عزلته وعاد لحياته كما بدأها بعد التعميد، لقد نُفخ فيه حبٌّ للحياة من جديد، دخل راموس الى البوابة العالية للقصر، واتجه الى القاعة الكبرى تحت القبة المقعرة، وحين اصبح تحتها، نظر الى الحروف المنقوشة اسفلها، وتشكلت امامه حروف جديدة تحمل رسالة الالهة التالية، قرأها هو مبتسم نصف ابتسامة، ثم اخفض رأسه والتفت الى السيدة مارلين، والى ايفا التي تركت الشرفة نازلةً بسرعة نحوه، نظر اليهما كأنه يريد ان يتلو عليهما رسالة الالهة الجديدة، كانتا متشوقتين لهذه الرسالة جدا، فتح فمه ليقولها، وكانت الرسالة ..

"اصبر، فانت في الجنة.."..

شعرت السيدة مارلين وايفا ببعض من خيبة الامل، كما احستا بأن راموس لن يقتنع بتلك الرسالة، لكنهما بقيتا جامدتين بانتظار ردة فعله عليها، فما كان منه الا ان توجه الى تمثال ارادة الالهة الكبير وسط القاعة،

وقف امامه واطال النظر اليه. كان يعلم بان ايفا حبلى منه. ويعلم بانه لو صبر قليلا فقد يزول الملل الذي يشعر به من عيشه وسط هذا النعيم. لكنه لم يكن يبدو كرجلٍ سيصبر عن قريب. فقد ترك النظر الى تمثال ارادة الالهة. وتوجه الى حيث ترك مطرقته وازميله في المرة الاخيرة. حمل المطرقة وحدها. وعاد الى تمثال ارادة الالهة ذاك. شاعرا بانه يمثل وجودها الحقيقي. بعد ان تراءت له بذات الهيئة. اتجه نحو التمثال بخطى اسرع. وقف امامه من جديد. ثم رفع مطرقته عاليا. وضرب التمثال في جذر ساقه الاولى ضربةً هشمت الحجر الذي صُنعت منه. تعالى صوت السيدة مارلين وايفا عاليا. صوت من رأت صدمة حياتها. حاولتا ثنيه بالصراخ والطلب منه التوقف. لم ير احدٌ احداً غاضبا على ظهر هفينا منذ نسمة الجمال التي مرت عليها بعد تعميد راموس. لقد كان يفيض غضبا كبركانٍ نافث لكل احشائه الحارة. رفع مطرقته من جديد. واصاب الجذر الثاني مبعثرا شظاياه على ارضية القصر الرخامية. وعاد لتحطيم الجذر الثالث فالرابع وهو يصرخ: "مهما وضعتِ من الشهوات. كل ما خلقتِ من الطيبات هنا. فأنا انسان! تبا للملل الذي تضعني فيه الى الابد. وللقرار بالعيش في كنف الابدية الهائل هنا وان كان وسط كل ما منحتِ! ايتها الالهة التي لا تنفع. زوال جنتك هو ما اريد!.."، وراح يضرب التمثال مهدما اياه حجرا تلو الحجر. حتى بدأ يتصدع ويئن كبابٍ صدئة. وحتى لم يبق ما يرتكز عليه بعد ان تهدمت سيقانه السبعة وركبه الاثنتان. فمال باتجاه الامام بوزنه العظيم. واصبح وجهه ولحيته بمواجهة الارضية الصلبة. واصطدم بها محدثا دويا هائلا. كجبلٍ ترنح ليسقط وسط المحيط. واستحالت قاعة برادوزا الكبيرة الى غبارٍ ابيض متطاير. لقد انهار تمثال ارادة الالهة السبعة عن اخره. وارتجت قاعة قصر برادوزا الكبيرة بالدوي الرهيب وصداه الذي يصم الاذان. ورنت الساعة القديمة معلنة توقفها عن العمل في تلك

اللحظة وقد اشارت اميالها الى السابعة صباحا، ثم تفتق صوت اخر صوت تمزق سقف من حجارة، نظر الثلاثة الى سقف القاعة وقبتها، لقد تشققت القبة الكبيرة، وترنحت الحروف المنقوشة على قعرها الواحد تلو الاخر، وبدأت بالسقوط حرفا حرفا متهشمةً على ارضية القاعة، ركض راموس وايفا والسيدة مارلين من تحت الدمار الذي بدأ يحدث في القصر، ابتعدوا لمسافة قليلة ليقفوا على ربوة من تل اخضر، ولينظروا الى القصر والشقوق تتصاعد على جدرانه وقبته كأفاعٍ سوداء مجوفة، لقد بدأ الغبار يتصاعد من كل زواياه، حتى انهارت القبة العظيمة الى ارضية القصر كشمسٍ تغرب بسرعةٍ عجيبة، وتهدمت اركان القصر جميعها محولةً المشهد الى غيمةٍ بيضاء عظيمة، وقبل ان يستقر الغبار ليتضح تل الخراب الذي حدث، مرت ريح حمراء ترابية على هفينا، اشتعلت في السماء كقش محترق بنار كبيرة قادمةٍ من الافق، كانت بشعةً لدرجة تقشعر لها الابدان، مقتربة من اجواء الجزيرة بسرعة انهيار القبة الكبيرة، مرت على الجزيرة لتحيل جوها الى لون احمر قان داكن، ومع مرورها السريع، استحالت ارض هفينا المعشوشبة الجميلة الى عشبٍ اصفر متيبس، ولمحت دوراثا من كوخها الصغير مرور تلك الريح، فركضت الى الجدول المترقرق من امام ذلك الكوخ، ذلك الجدول النقي الماء، لتجده قد استحال الى كدرٍ وطين، حتى الاسماك فيه بدأت تتقلب وتتقافز الى خارجه، بدا جمال هفينا الاخاذ يزول تدريجيا، وتعالت اصوات نحيب وبكاء نسوتها من الفزع، ومن فقد حياةٍ رائعة دامت هنا لعامين، لقد بدأت جنة هفينا بالزوال، وتفتق عمود دخان غاضب من غرب الجزيرة، حيث يقبع بركان هيلا الخرافي الهيئة، اما راموس، فقد ترك برادوزا خلف ظهره، وراح يسير باتجاه غرب هفينا، وعلى مسافةٍ منه، كانت السيدة مارلين وايفا تلحقان به وقد ادركتا ان ما يتلبس راموس هو الجنون وحده، كان يخطو بخطوات

واسعـــةٍ الى غرب الجزيـــرة. الى حيث يتصاعد عمود دخـــان هيلا الغاضب. وكلمـــا تقـــدم. رأى ارض الجزيـــرة تعود الى سابـــق عهدها واســـوأ. زال تأثير النسمة الجميلة. وبدأ جمال الجزيرة يزول سريعا. حتى النسوة اللواتي كان يراهـــن وهـــو يسير الى وجهته. لم يعدن بذلك الجمـــال الذي اصبحن عليه بعد تعميده ومرور نسمة الجمال. لقد كانت هفينا تعود بالزمن الى الوراء. علت صرخة امرأة يميزها جيـــدا. كانت تلك صرخة باربوسا وهي تستعيد ذاكرة فقـــدان عائلتها. فلن يعـــودوا ليظهروا لها ولكـــي يزيلوا وحشتها واشتياقهـــا. وسمع راموس ايضا نـــواح نسوة تذكـــرن ازواجهن وبنينهن واباءهـــن قضـــوا في العاصفة. لقد زال الاطمئنان كلـــه. وتحرك الموج على اطراف الجزيرة متصادما على شواطئها. غاضبا ومزمجرا. لم يعبأ راموس لكل ما يجـــري. وراح سائرا في طريقه نحو غرب الجزيرة. بسرعة سير الريح الحمـــراء من فوقه. كان يسير ويتحدث. ولم تسمع المرأتان شيئا من كلامه عـــن ذلك البعـــد. كانتا تســـيران بخطوات مضاعفة عـــن خطواته لقصر مسافـــة تلك الخطـــوات. وبالكاد كانتـــا تقتربان منه. وفجـــأة ووسط ذلك المســـير. شعرت ايفا بألمٍ في اسفـــل بطنها. المٌ بدا ينتشر الى بطنها كله كانتشار الدم في العروقٍ. صرخت بالسيدة مارلين طالبةً نجدتها. امسكت الاخيرة بيدها وهي تتلفت بين راموس الذي بدأ يضمحل مبتعدا. وبين ايفا التي تعرق وجهها بغزارة. كانت تصرخ فيما بطنها يبدو منتفضًا. تصرخ من الم مخاضٍ حانت ساعته. لم تعد الولادة مثلما كانت على هفينا حين كانت تحت تأثيرٍ نسمة الجمال. اصبحت بذات الالام التي كانت عليها حين كانـــت الحياة طبيعية قبل العاصفة والتعميد. صرخت ايفا على حبيبها الاوحد الذي لم يستمع اليها وسط ضجيج عواصف الجزيرة وشواطئها. ووســـط اصوات زفير هيلا المزمجر بدخانه ونـــاره على طرف الجزيرة الغربي. صرخت مرارا. واختلطـــت صرخاتها بترجيات الســـيدة مارلين له بالعودة.

الترجيات التي لم يسمعها ايضا. كل ما كان يبدو انه يتعاظم، هو جموع نسوة الجزيرة وهن يركضن باتجاه راموس آملاتٍ في ان يجد ملكهن ورجلهن الوحيد مخرجا لتلك الكارثة. كانت النسوة تسير الى الخلف منه بصرخات مبحوحة، واصوات فاقدة، بعضهن يحمل اناثهن الصغار اللاتي انجبنهن منه، كانت تلك ساعة فزع كبيرة، اما راموس، فكان يحث الخطى وهو يتحدث بصوت عال ..

"اي جنةٍ تلك التي وضعتني فيها يا الهة المعادن، اي ملل واية متعة! لقد ورثت كل ما على هفينا هذه وحيداً اوحداً، منحتني ما لم تمنحيه لاحد، وفتقت لي الارض بأطيب الثمار، ومررت بالنسوة على فراشي كدولاب الماء الواحدة تلو الواحدة، حتى شبعت بطني مرارا ولم تشعر بالجوع للحظة، وحتى افرغت كل مافي رجولتي في ارحامهن، واريتني من سطوة الكلمة وقوة الحكم ما لا يحلم به احد، وصنعتِ الجمالَ من حولي حتى لو اني سردت ما هو عليه لاحد لم يصدقني، لكن يا الهة المعادن السبعة، اي جنةٍ تلك التي لا يكون للمرء فيها رأيا، ولا يكون له فيها مبدأ ونهاية ليبدأ من جديد في حياة اخرى، لقد اتعبتني ابدية العيش هنا حتى لم اعد اطيق حلو هذه الحياة وطيبها، لم اعد اطيق، وتركت كل النعيم عائدا الى النحت الذي يدمي الكفوف ويؤلم العظام، ومللت كما مللت عامي الاول، وتعبدت اليك وانا ابحث عمّا اراه جديدا بتجليك ورضاك فلم تنفعيني، وتجّليت لي حتى احكمتِ قبضة الابدية حول قلبي فلم استفد من ذلك شيئا، اي عيشٍ ذاك الذي لا يتبدل وان كان نعيما، أعيدي لي حياتي التي كانت من قبل، فعلى الاقل ان لها نهاية، مهما كانت ايامها قصار منقضيات، أعيدي لي الشعور بنقطة النهاية، حتى لا أبد هنالك يستمر، ولا أزلَ يُذكر، وحتى اصبح من بعد موتي في طي النسيان، وهبي لي قرارا في يدي، حتى انهي حياتي متى اشاء، عندها سأظل ممتنا لك حتى الرمق الاخير.."..

كان راموس يسير ومن خلفه نسوة هفينا الى الغرب، وتعالت صرخات ايفا التي وصلت اليها المرأة العجوز ذات العصا الغليظة، وصلت اليها ورمت بعصاها جانبا، جلست الى جانبها ومددتها على ظهرها، وكلما صرخت ايفا، كانت السماء تزداد حمرة، واختفت الشمس خلف الريح المغبرة كأنها لم تكن، جلست العجوز بين ساقي ايفا، ووالد من ستلد يتلاشى مع الافق سائرا الى الغرب، مقتربا من الحافة المنهارة المطلة على جحيم هيلا، تصرخ ايفا بألم وحزن، مناشدة راموس بالعودة والوقوف معها في محنة ولادتها الاولى التي تحمل هذا العذاب، والتي لم تكن كذلك في ولادتها السابقة، تصرخ وتتضح عروق بطنها من خلف جلدها كسمكة شفافة يبدو هيكل عظامها، وتنخفض العجوز الى مابين ساقيها ناظرةً الى ما سيخرج، وعلى الحافة المنهارة، كان راموس يقف هناك بين دخان هيلا المتعالي بكثافة كليلٍ متصاعد، ينفث حممه التي لم تستطع النسوة الراكضات خلف راموس ان يقتربن اكثر خوفا منها، كان يطل لوحده امام هيلا المرعب بمعادنه السائلة الحمراء والبرتقالية، والسوداء احيانا، تنشق كفتقٍ مهيب له قطرات من زفير، تعالت وسط هذا الجو المخيف للغاية قطرات الحمم وهي تتناثر غيظا الى السماء، وينبجس بحر الحمم عن مزيد من النار والدخان، تمور من بينها منصهرات عظام الاولين، الذين ابتلعهم دون رحمة، وقف راموس هناك وشعبه ينظر اليه من بعيد وايفا تصارع الطلق، ونظر الى السماء باحثا عن تجلي الالهة الأخير فلم يجد شيئا من ذلك، وحين كانت السماء من فوقه حمراء ترابية ممزوجةً بالسواد، مع قطراتِ مطرٍ كبيرة طينية، ادرك راموس ان لا مناص له من مواجهة قدره الذي صنعه لنفسه، شهق دخانا مما يتصاعد من البركان المهيب، وصاح بصوت خذلته الجلبة التي من حوله، صاح بأعلى ما تجود به حنجرته: "اذا كنتِ ترسمين لي قدري بالأبدية، فسأرسم قدري بنفسي بالفناء.."،

زمجر هيلا بأعلى صوته، وبأكثر نفخاته المرعبة الممزوجة بالحمم الساخنة علواً، وتقدم راموس قريبا جدا من اخر شبر على الحافة المؤدية الى دهاليز هيلا القاتلة، بينما صرخت ايفا صرخةً مدويةً لخروج رأس طفلها الجديد عن جسدها، تلقفته ايدي العجوز الخشنة وهي ترددد: "المبدأ هو النهاية.. والنهاية هي المبدأ"، وحين بدأ يكتمل خروج الطفل، ترنح راموس بإرادته على الحافة، وانكفأ جسده المشبع نعيما الى الامام، هوى الى قلب هيلا بإرادةٍ محضة لم تتزعزع امام كل صرخات البركان الغاضب، هوى تاركا جنة هفينا تتحطم من بعده، وتاركا كل نعيمٍ وعدت به الالهة التي لم تفده في وحدته شيئا، هوى احتجاجا على الأبدية التي وضعته فيه، نازلا الى اعماق الحفرة المهولة للبركان، ثانيةً بعد ثانية، مقتربا من ملمس الحمم الصاهرة، بعيدا عن قبة برادوزا وحفلات الليل الصاخبة، متجردا من انهار الخمر واللبن وعناقيد الثمار من فوقه، حتى ارتطم بذلك السائل الغاضب الذي يصهر كل تلك المعادن، تاركا بشرته تتسامى فورا، غارقا في بحر النحاس والحديد المنصهر، وزافراً زفرته الاخيرة، والتي تحولت الى شهقة عظيمة، ثم صرخة طفولية خائفة بفم طفله الذي ولد في تلك اللحظة من رحم ايفا، رفعت العجوز ذلك الطفل، ورددت من جديد: "المبدأ هو النهاية، والنهاية هي المبدأ"، واعلنت للسيدة مارلين وللام ايفا، ولادة اول ذكرٍ على وجه هفينا بعد فناء راموس، الطفل الذي لم تنو الالهة خلقه لولا رحيل خلقها الاول وفنائه، ابوه، ذلك الذي اختار مصيره بنفسه ..راموس الذي كان ملكا...

الخاتمة

كانت تلك هي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة الحادي والعشرين من ديسمبر من العام 305 لبدء الحياة على جزيرة هفينا. رست السفينة اسك على شواطئ الجزيرة التي لم تزرها منذ شهر. ورفرف فوقها علمها الابيض حاملا رسمة كفين مرفوعين الى السماء. اليوم هو موعد التبادل السلعي مع سكان الجزيرة. استقرت اسك على الميناء المحطم جزئيا وترجل البحارة منها. لقد علموا بان عاصفةً ضربت الجزيرة ليلة امس. وتملكتهم الخشية وهم ينظرون الى الميناء خاليا من الناس تماما. ليس كما عهدوه وهو يضج بهم وبصغارهم باستقبال السفينة. ورأوا افاق الجزيرة صماء من اي صوت الا صوت زقزقة العصافير واصوات طيور البجع. خطوا بضع خطواتٍ حذرة الى عمق تلك الارض. وادركوا مع اول جثة رجلٍ وزوجته وجدوها. ان عاصفة الامس قد قضت على سكان الجزيرة برجالها ونسائها. وهو ما تأكد لهم. حين وجدوا المزيد من السكان. رجالا ونساءا. وقد لقوا حتفهم تحت سقوف منازلهم او بين التلول محاولين الاختباء من تلك العاصفة. او حول مبنى العبادة في قلب الجزيرة مستجيرين به من الفزع. لقد فني سكان هفينا جميعا. ولم يعد هناك احد على قيد الحياة..

وبعد ظهيرة ذلك اليوم. كان الاسكيون منهمكين في انتشال ودفن سكان الجزيرة في ارضها. دفنوا المئات من الرجال والنساء والاطفال. العجائز والشباب. ذوي الشارات والمناصب والفقراء. وفيما هم ينتشلون المزيد. وتحت ركام كوخٍ عتيق. وجدوا جثة ساقٍ يعرفونه جيدا كان يجلب لهم أحيانا ماءا عذباً. وقد سقطت بالقرب منه ساعة جدارية قديمة. توقفت اميالها على السابعة صباحا. موعد سقوط الكوخ تحت العاصفة.

نظـــر اليـه احـدهـم وقـد رأى تغـضـنـات وجـهـــه وبـقـايـا اثـار المـوت عـلـيـه، الـتـفـت إلى مـن كـان بـقـربـه وقـال:

" الالـهـة وحـدهـا تـعـلـم بـمـا رآه هـذا الـسـاقـي **في موته**".